



الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة محمد بوضياف المسيلة

كلية: العلوم الإنسانية والاجتماعية

قسم: التاريخ



الرقم التسلسلي: 2024/.....

1- رقم التسجيل: 22075097078

2- رقم التسجيل: 23075112079

بمعنوان:

فعاليات مجتمع الجزائر العثمانية أواخر القرن 18م وبداية
القرن 19م
مدينة الجزائر أنموذجا

مذكرة مكملّة لنيل شهادة الماستر في:

تخصص: تاريخ حديث

شعبة: تاريخ

إشراف الأستاذ الدكتور(ة)

إعداد الطالبتين:

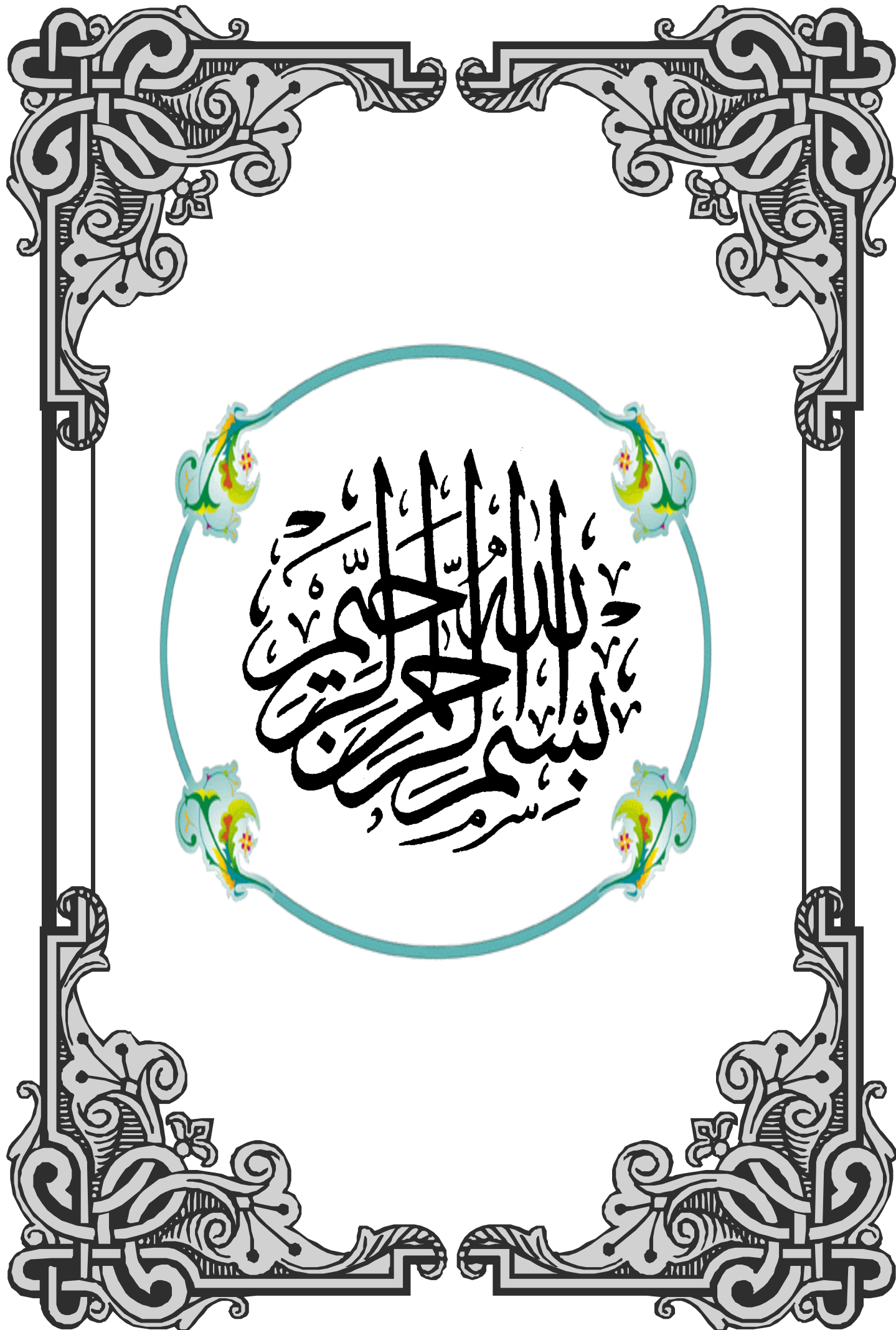
د/ عبد الرحمان نويقة

- عطا الله سمية

- بن عزوز شريفة

رئيسا	أستاذ محاضر	د/ أمال معوشي
مشرفا ومقررا	أستاذ محاضر	د/ عبد الرحمان نويقة
مناقشا	أستاذ محاضر	د/ مصطفى عبيد

السنة الجامعية: 2023 - 2024 م



الشكر وعرفان

الحمد لله حمد كثيرا حتى يبلغ الحمد منتهاه والصلاة والسلام على أشرف مخلوق آثاره الله

بنوره واصطفاه

وانطلاقا من باب من لم يشكر الناس لم يشكر الله أتقدم بخالص الشكر والتقدير للأستاذ
المشرف د/ **نويقة عبد الرحمان** على إرشاداته وتوجيهاته التي لم ييخل بها علينا يوما، كما
أتقدم بجزيل الشكر والعطاء إلى كل يد رافقتنا في هذا العمل سواء من قريب أو من بعيد
والشكر موصول كذلك إلى أهلنا الذين سهروا على تقديم كل الظروف الملائمة لانجاز هذا
العمل

كما لا أنسى أن أشكر جميع الأساتذة والمؤطرين الذين قدموا لنا يد المساعدة وإلى كل
الزملاء والأساتذة الذين تتلمذنا على أيديهم وأخذنا منهم الكثير.

الحمد لله

إلهي لا يطيب الليل إلا بشكرك ولا يطيب النهار إلا بطاعتك ولا تطيب
اللحظات إلا بذكرك ولا تطيب الآخرة إلا بعفوك ولا تطيب الجنة إلا برؤيتك.
إلى نبع الحنان وسر الوجود إلى أمي التي أصرت استكمال دراستي بعد انقطاع
إلى والدي وفخري في الحياة حفظهما الله وأطال في عمرهما
إلى زوجي وسندي كنت محفزي وقوتي حفظك الله لي
إلى أولادي وقرة عيني تاج الدين وكثري
إلى نور حياتي وضيائها ابنتي وحبيلتي ليان
إلى اخوتي كل باسمه مريم سهام وحمزة
إلى كل أساتذتي في مساري الدراسي وأخص بالذكر الدكتور كمال بيرم وأستاذي
القُدوة عبد الرحمان نويقة
إلى شريكتي في هذا البحث شريفة
إلى أصدقائي أقاربي زملائي في الدراسة والعمل
إلى كل من ساعدني في انجاز هذا العمل

والسلامة



الحمد لله

الحمد لله حمدا يبلغ رضاه، وصلى الله وسلم على من اجتباه وولاه تسليما لا يدرك منتهاه أما بعد:

أهدي ثمرة جهدي إلى من تعبت من أجل راحتي

إلى التي أنارت لي الطريق بدعائها وانتظرت بفارغ الصبر نجاحي .

إلى سيد النساء أُمي الغالية حفظها الله لي

إلى سيد الرجال الذي تمنى أن يرى نجاحي وفرحي ..

إلى روح أبي الطاهرة الذي كان ولا يزال تاجا فوق رأسي رحمه الله وأسكنه فسيح جناته.

إلى مصاييح البيت إخواني فاطمة الزهراء - يعقوب - توفيق اسراء .

إلى الأساتذة الأعزاء الذي أدين لهم بالكثير

إلى ابني قرة عيني عبد العزيز وإلى كتاكيت البيت حسناء ومحمد

إلى أُمي الثانية مباركة

إلى خالاتي وأخوالي وأعمامي وعماتي

إلى صديقتي سميرة - خديجة وسهام

إلى كل من أحبوني وتمنولي النجاح بصفة عامة

بسم الله الرحمن الرحيم



مقدمة

مقدمة:

مرت الجزائر بمراحل حضارية متنوعة أثرت كل منها بخصائص ومميزات متعددة على المجتمع الجزائري وتعد المرحلة العثمانية من أبرز المراحل والفترات في شتى الميادين بما في ذلك الجانب الاجتماعي الذي عرف تنوع وتمازج والذي نلمس تأثيره في وقتنا الحالي من خلال (العادات والتقاليد، الأعراق والاجناس، المصطلحات ... وغيرها). وإذا كان الجانب السياسي والعسكري قد هيمننا على أغلب الدراسات التاريخية المتعلقة بهذه الفترة. وبقينا منا بأهمية هذا الجانب في مسار الأحداث ارتأينا تناول موضوع.

فعاليات مجتمع الجزائر العثمانية أواخر القرن 18م وبداية القرن 19م ونعتقد أنه ذو أهمية حيث يزيج الغبار على الكثير من الأمور التي عرفها المجتمع الجزائري خلال هذه الفترة.

ويهدف هذا البحث الى دراسة طبيعة المجتمع ومظاهر حياته وتحولاته في ظل الأوضاع السياسية والاقتصادية.

ويعود سبب اختيار هذا الموضوع الى عدة عوامل أولها ميولتنا الشخصية الى تاريخ الجزائر العثمانية وبصفة خاصة المواضيع الاجتماعية.

كما أن المؤرخين الجزائريين تركوا المجال فارغا أمام المستشرقين فكانت لهم الفرصة لدراسة المواضيع حسب وجهة نظرهم حتى أن البعض منهم ذهب إلى تزيف الحقائق وخلق أساطير تنافي ما كان موجودا آنذاك.

بالإضافة الى تركيز معظم المؤرخين في دراساتهم التاريخية على الجوانب السياسية والعسكرية .

والموضوع في حد ذاته يطرح إشكالية فعاليات مجتمع الجزائر العثمانية ويتفرع عنه مجموعة من الأسئلة .



ما هي فئات مجمع الجزائر العثمانية؟
وكيف كان وضع مجمع الجزائر العثمانية ؟
وكيف كان الوضع الثقافي في ظل الحكم التركي ؟
وما هو دور السلطة العثمانية في انعاش حياة المجتمع الجزائري آنذاك؟
وقد اعتمدنا في دراستنا على المنهج الوصفي التاريخي والتحليلي الذي رأيناه مناسباً
لمثل هذه المواضيع ، كما اعتمدنا في بعض الأحيان على المقارنة والمقاربة بين الحالات
التي تستدعي ذلك.
ولمعالجة الموضوع قسمنا البحث إلى ثلاث فصول بعد أن قدمنا له بمدخل لواقع
الوضع العام للجزائر وأردفنا البحث بمجموعة من الملاحق التي تخدم الموضوع.
فتناولنا في الفصل الأول بنية مجتمع الجزائر العثمانية .
وتناولنا في الفصل الثاني الحياة الاجتماعية لسكان الجزائر العثمانية
أما الفصل الأخير فكان تحت عنوان الحياة الثقافية لمجتمع الجزائر العثمانية.
وجاءت الخاتمة على شكل خلاصة لنتائج البحث واستنتاجات عامة.
واعتمدنا على مجموعة من المصادر نذكر أبرزها:
المرآة لحمدان بن عثمان خوجة.
التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية لمحمد ميمون الجزائري.
قسنطينة أيام أحمد باي لفندلين شلوصر
الجزائر في عهد رياس البحر لوليام سبنسر بالإضافة الى مجموعة من المراجع نذكر
منها:
تاريخ الجزائر الثقافي لأبو القاسم الذي رسم لنا الخطة وبصفة خاصة في المجال
الثقافي.
دراسات وابحاث في تاريخ الجزائر (العهد العثماني) لأبو العيد دودو
النظام المالي للجزائر أواخر العهد العثماني 1792-1830م لناصر الدين سعيدوني .

الجزائر بوابة التاريخ (من ماقبل التاريخ الى 1962) لعمار عمورة.
ومن الصعوبات التي واجهتنا قلة المصادر المتخصصة في المجال الاجتماعي
وتناقض بعض الكتابات خاصة فيما يتعلق بالمستشرقين فتوجب علينا دراستها والمقارنة
بينها ومن ثم تقصى الحقيقة وأخذ ما يهمنا بصفة دقيقة بالإضافة الى صعوبة ترجمة
الكتب الأجنبية.

وخلاصة هذا البحث أننا حاولنا كشف بعض الغموض عن هذا الموضوع ولا
ندعي أننا استوفينا الموضوع حقه في البحث إلا أننا حققنا الأمانة العلمية والصدق على
الأقل لموضوع نعتقد أنه لا يزال يحتاج إلى أعمال وافية لا عطاءه حقه وبالله التوفيق.

مدخل



الأوضاع السياسية والاقتصادية للجزائر أواخر العهد العثماني



مدخل: الأوضاع السياسية والاقتصادية للجزائر أواخر العهد العثماني.

أ - الأوضاع السياسية:

اعتبرت الجزائر أواخر العهد العثماني دولة مستقلة استقلالاً تاماً عن الخلافة العثمانية دولة مكتملة السيادة لها حدود معترف بها دولياً، ولذلك كان يطلق عليها اسم الجمهورية الجزائرية ولا يربطها بالدولة العثمانية سوى رابط الدين، فسمحت هذه المكانة الرفيعة للحكومة الجزائرية باتخاذ قراراتها بكل سيادة، فتعلن الحرب وتبرم السلم وتمضي المعاهدات دون استشارة الباب العالي، لذا كان يوجد بالجزائر قناصل للدول الأجنبية يتمتعون بالحصانة ويمثلون مصالح بلادهم، وفي هذا الصدد أبرمت الجزائر عدة معاهدات تجارية وسلمية مع الدول الأوروبية، وكانت الجزائر من أولى الدول التي اعترفت باستقلال و.م.أ سنة 1776م¹، فكان بذلك الحكم التركي ظاهري أكثر منه حقيقي لا سيما في المناطق النائية حيث يتضاءل تدخل السلطة المركزية لدرجة العدم.

وكانت الجزائر في هاته الفترة على عهد الدايات قوية² رغم ما اتسمت به هته الفترة من اضطرابات وفوضى³، ومما يدل على ذلك أنها لم تجرب أي دولة أوروبية أو غربية على غزو أو احتلال مدينة الجزائر عاصمة الدولة الجزائرية. وبذلك فرضت وجودها ونفوذها في حوض البحر المتوسط وأصبح لها مجال حيوي في شرق وغرب هذا البحر، ويتجلى ذلك في احترام الدول لها⁴. ومن أبرز دايات هته الفترة المدروسة نذكر: مصطفى باشا (1798م - 1805م)، أحمد باشا (1805م - 1808م)، علي باشا الغسال (1808م -

¹ عمار عمورة، نبيل داوودة: الجزائر بوابة التاريخ (الجزائر عامة ما قبل التاريخ إلى 1962)، ج 1، دار المعرفة، 2009م ص 117.

² ناصر الدين سعيدوني: النظام المالي للجزائر في أواخر العهد العثماني (1792-1830)، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985، ص 21.

³ محمد الطيب عقاب: حمدان خوجة رائد التجديد الإسلامي، وزارة الثقافة الجزائر، 2007، ص 13.

⁴ أحمد سليمان: النظام السياسي في الجزائر في العصر الحديث من القرن (2016)، مطبعة دحلب، الجزائر، ص 17.

1809م)، الحاج علي باشا (1809م - 1815م)، محمد باشا (1815م)، عمر باشا (1815م - 1817م)، علي خوجة باشا (1817م - 1818م)، حسين باشا (1818م - 1830م)¹. وبإختصار فإن فترة الدايات تميزت بخصائص يمكن إيجازها فيما يلي:

1 - في عهد الدايات تحول جنود البحرية من جنود مناضلين ومقاتلين ضد القوات المسيحية المناهضة للإسلام إلى رجال يبحثون عن غنائم لأنفسهم وللحكام.
2 - اهتم حكام الجزائر بجمع الثروة من العمليات الحربية في البحر، ولم يهتموا بتطوير الدخل.

3 - تمكن حكام الجزائر في هذه المرحلة الأخيرة من القضاء نهائيا على الوجود الإسباني في الجزائر.

4 - نتيجة لاعتماد الحكام على الحروب والصراعات الداخلية بين فئات الجيش فقد لقي العديد من الحكام مصرعهم على يد المجموعات المعادية لهم، بحيث أصبحت قضية اغتيال المسؤولين عملية عادية².

كما برزت سلسلة من الثورات في مطلع القرن 19م كرد فعل على سياسة الحكم من أهمها:

أ- ثورة ابن الأحرش³: الذي ادعى أنه من الأشراف وجمع الأتباع والمخلصين له من قسنطينة وجيجل للقيام بانقلاب ضد الوجود العثماني، كما ادعى أن دعوته مستجابة بالنصر يتبعه حيث حل وبارود عدوه لا يضر ولا يصيب أتباعه بل يرجع لديهم ماء⁴،

¹ أحمد توفيق المدني: محمد عثمان باشا داي الجزائر (1766-1791)، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986، ص ص 50-59.

² عمار بوحوش: التاريخ السياسي للجزائر من البداية ولغاية 1962، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1997، ص ص 61-62.

³ هو محمد بن عبد الله الشريف المشهور بالبودالي وهو مالكي المذهب درقاوي الطريقة درعي النسب (ينظر: ناصر الدين سعيدوني: دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر العهد العثماني، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص 169).

⁴ صالح عباد: الجزائر خلال الحكم التركي (1514-1830)، ط2، دار هومة للنشر والتوزيع، 2007، ص 195.

وقويت شوكتة وازدادت شعبيته واكتسبت طابعا مقدسا بعد أن انظم إليها المرابطين، وبلغ عدد أنصاره أكثر من 10 آلاف رجل اتجهوا إلى قسنطينة، ولما حل بها ابن الأحرش خرج أهلها لمحاربته تحت قيادة أحمد بن الأبيض فوقع القتال بين الطرفين وتكبد ابن الأحرش هزيمة نكراء وتشتتت قواته، ولما علم الداوي بهذا الحادث كتب إلى عثمان باشا يأمره بالقضاء على ابن الأحرش فجهز حملة عسكرية في أوت 1804 للبحث عن الشريف بن الأحرش، إلا أن هذا الأخير وأنصاره تمكنوا من قتل عثمان باشا، فعين الداوي عبد الله بن إسماعيل بايا على قسنطينة وكلفه بتتبع ابن الأحرش، وبعد عشرة أشهر من ملاحقته والحروب الدائمة معه بعد التحاق مجموعة درقاوة إليه إلى أن تمكن الباوي من دس من قتله من أصحابه¹.

ب/ تمرد درقاوة : قادها عبد القادر بن الشريف المعروف بالدرقاوي² الذي أعلن الجهاد على الأتراك محلا لدمائهم وأموالهم، فجهز الداوي مصطفى جيشا لقتاله والتقى الجيشان وأسفرت عن انهزام الداوي مصطفى وتحصن بعدها الدراقاوي في معسكر وكاتب القبائل للانضمام إليه لإبعاد الحقرة والذلة وقطع دابر الأتراك، فجمع الأنصار وحاصر مدينة وهران ثمانية أشهر، إلا أنه لم يتمكن من اقتحامها لضعف العدة فتراجع عنه أتباعه فتوارى عن مسرح الأحداث وبقي في بني يزناش إلى أن توفي.

ج - تمرد التيجانية: قاده محمد بن أحمد المختار التيجاني³، الذي جهز جيشا وتوجه به نحو معسكر وأخذ يقاتل أهل معسكر فبعث الداوي بالمال لكبراء الحشم ليتخلوا عنه،

¹ ناصر الدين سعيدوني: دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر العهد العثماني، مرجع سابق، ص 169.

² هو عبد القادر بن الشريف يعرف لدى العامة بابن الشريف الدراقاوي أصله من قبيلة كسانا البربرية (ينظر: حنيفي هلايلي، : أوراق في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، الجزائر، ط1، دار الهدى، 2008، ص 32)..

³ هو محمد بن أحمد بن مختار التيجاني المعروف بمحمد الكبير التيجاني ولد 1737، بقرية عين ماضي قرب الأغواط وقيل نسبه ينتهي عند فاطمة بنت الرسول صلى الله عليه وسلم (ينظر : عبد الرحمان طالب: سيدي أحمد التيجاني، ديوان المطبوعات الجامعية وهران، 2001، ص 6) .

ففر الحشم عن التيجاني وفر الكثير من جيوشه التي أتت معه، ولم يبق معه إلا نحو 300 من الأعراب قاتلوا قتالا شديدا إلى أن قتلوا جميعا وقتل معهم محمد التيجاني. ومن هذا ساهمت كل هذه الثورات إلى حد كبير في إضعاف السلطة الحاكمة في الجزائر وانحيار الحكم العثماني فيها¹.

أما من الناحية الإدارية فكانت الجزائر مقسمة إلى أربع مقاطعات:

1- دار السلطان: سميت بهذا الاسم لأنها تابعة مباشرة للداي، وتمتد من دلس شرقا إلى شرشال غربا ومن ساحل البحر الشمالي إلى سفوح الأطلس البليدي جنوبا، وتضم إقليمي الساحل ومنتجة مع بعض الامتدادات في بلاد القبائل والتيطري، وتخضع دار السلطان مباشرة لرؤساء السلطة التركية، وتنقسم إلى أوطان يحكمها قواد تحت إشراف آغا العرب، وعادة ما يكون من عائلة الداوي ويخضع مباشرة إليه، وكل وطن مكون من دواوير يسكنها الأهالي ومن أحواش يملكها موظفو السلطة التركية والإنكشارية والمرابطون وبعض أثرياء الجزائريين.

2 - بايلك الشرق: كان مركزها قسنطينة وقد حكم الأتراك أغلب نواحيه الجبلية والصحراوية عن طريق الرؤساء المحليين، أما الأراضي السهلية المجاورة لقسنطينة والغنية بفلاحتها فقد وضعت تحت تصرف البايك مباشرة يوزعها على أعوانه مقابل الخدمات.

3 - بايلك الغرب: وقد استقر مركزه بوهراة بعد انتقاله من مازونة ثم معسكر، واتخذت السلطة التركية بهم صبغة حربية نظرا لتوتر العلاقات بين الأتراك والمغاربة وانتفاضات درقاوة وبقاء الإسبان بوهراة حتى 1792م².

4 - بايلك التيطري: ومركزه المدية ويعتبر أصغر البايكات وأفقرها وأكثرها ارتباطا بالسلطة المركزية، ولهذا وضع بجانب الباي حاكم يتصل مباشرة بالجزائر، ويهتم بأمور القيادات الأربع التي كان البايك يتكون منها.

¹ صالح عباد: الجزائر خلال الحكم التركي (1514-1830)، المرجع السابق، ص 194.

² ناصر الدين سعيدوني: النظام المالي، المرجع السابق، ص ص 28-29.

ومما يلاحظ على هذا التقسيم الإداري أن حدود القطر الجزائري جنوبا كانت غير واضحة، كما أن الأراضي الخاضعة مباشرة للسلطة التركية لم تكن تتعدى سدس مساحة الجزائر الشمالية الحالية¹.

ب - الأوضاع الاقتصادية:

يمكن إبراز الخطوط العريضة لاقتصاد الجزائر العثمانية بالتعرض للنشاطات الاقتصادية الرئيسية.

1 - الزراعة: كانت هي المورد الرئيسي الذي يؤمن معيشة غالبية السكان. وفي الفترة الأخيرة عندما نقصت المغامم البحرية ارتفعت السياسة الجبائية التركية التي أدت إلى تقلص النشاط الفلاحي²، ونتيجة لذلك هاجر العديد من الفلاحين عملهم الزراعي وفضلوا الانشغال في تربية المواشي³، أما من حيث الإنتاج فقد اختصت كل منطقة بإنتاج نوع من المحاصيل حسب ظروفها الطبيعية والمناخية، وتوجد في القطر الجزائري ما هو كاف لحاجة أهل البلاد وسد ما يتطلبه الوطن من حبوب وأشجار مثمرة وزيتون وكروم ونخيل...⁴

ورغم تنوع المحاصيل فإن الفلاحة الجزائرية أواخر الفترة التركية كانت تعاني من مشاكل وصعوبات عاقت تطورها وازدهارها، وتعود هذه الصعوبات إلى الأساليب العتيقة المتبعة والآلات البدائية المستعملة في خدمة الأرض، ويضاف إلى ذلك الظروف الصعبة التي كان يعيشها الفلاح الجزائري، فقد كان معرضا للهجمات العسكرية ومهددا من قبائل المخزن المسلحة⁵.

2 - الصناعة: ظل النشاط الصناعي متواضعا بالإيالة الجزائرية، لا يتعدى الصناعات المحلية اليدوية وبعض الصناعات المعدنية التحويلية البسيطة، فالصناعات المحلية التي

¹ حنيفي هلايلي: المرجع السابق، ص 147.

² ناصر الدين سعيدوني: النظام المالي، المرجع السابق، ص 29.

³ عمار عمورة، نبيل داوودة: المرجع السابق، ص 221.

⁴ محمد الطيب عقاب: حمدان خوجة، المرجع السابق، ص 76.

⁵ ناصر الدين سعيدوني: النظام المالي، المرجع السابق، ص ص 31-34.

استمدت تقاليدها من الماضي السحيق تعتمد في نشاطها على إرضاء متطلبات أسواق المدن والأرياف من المصنوعات اليدوية مثل: صناعة الأغذية الصوفية والأحزمة الحمراء بتلمسان، والبرانس والزرابي والحصر بالأطلس الصحراوي، والفخار بندرومة والأحذية بقلعة بني راشد، والأدوات الجلدية والأقمشة بمازونة، ومن الحدادة وصنع الأسلحة والفضة بمناطق جرجرة، ومعالجة الأصواف والجلود وصنع السروج والجواهر بقسنطينة، وصناعة الحلي والشواشي بمدينة الجزائر.

ويرجع الفضل في المحافظة على هذه الصناعات المحلية المختلفة إلى بعض الأسر من الحضرة الأندلسيين واليهود، التي توارثت صناعتها وحافظت عليها من الاندثار، فالفئة اليهودية إختصت بصنع الجواهر الثمينة والأحجار الكريمة في مدن تلمسان والجزائر وقسنطينة¹.

وعلى عكس هذا النشاط والحيوية التي عرفتتها الصناعات المحلية اليدوية، فإن الصناعة المعدنية أو الثقيلة لم تشهد تطورا ملموسا لا من حيث الكمية ولا من حيث الكيفية، فلم تتعدى استخراج الملح من سبخا وهران ومعالجة الجير المستخرج من المحاجر الواقعة قرب المدن، أو بناء السفن الخشبية بميناء الجزائر أو تحضير البارود وسبك المدافع بمدينة قسنطينة والجزائر.

وبالجملة فإن الصناعة الجزائرية في هته الفترة بفرعيها التقليدي أو التحويلي، امتازت باعتمادها على المواد الأولية المتوفرة بالبلاد².

3 - مصادر الدخل: مصادر دخل الخزينة العامة كانت تمول من طرف أموال الزكاة والعشور³ والغرامة على المحاصيل الزراعية والعوائد التي هي بمثابة هدايا إجبارية تقدم

¹ يحي بوعزيز: موضوعات وقضايا من تاريخ الجزائر والعرب، ج5، دار الهدى، عين مليلة الجزائر، ص15.

² ناصر الدين سعيدوني: النظام المالي، المرجع السابق، ص ص 31-34.

³ العشور هي الضرائب عن المحصول. (ينظر: القاشعي فلة: النظام الضريبي بالريف القسنطيني أواخر العهد العثماني 1773-1827م، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث، 1989-1990م، ص ص 61-67).

في المناسبات وضرائب أراضي العرش، واللزمة التي تؤخذ لتموين الجند وهناك ضرائب المكوس على الأسواق، وضرائب سكان المدن، وجزية اليهود، ورسوم دخول السفن إلى المرسى، وحقوق الجمارك على السلع المستوردة والمصدرة، والتركات التي تؤول إلى بيت المال في حالة انعدام ورثة شرعيين، وكانت أغلب هذه الضرائب والرسوم غير قارة وليست محددة تتفاوت تبعاً لأوضاع البلاد الاقتصادية المختلفة والمتقلبة حسب المواسم¹.

4- التجارة: هي القطاع الاقتصادي الذي كان له تأثير مباشر على الأوضاع المالية والاقتصادية للولاية الجزائرية على الصعيدين الداخلي والخارجي على السواء.

فالتجارة الداخلية كانت تتم داخل المدن أو بواسطة الأسواق الأسبوعية والسنوية في الأرياف، يتم فيها تبادل السلع بالنقود² أو المقايضة، أما التجارة الخارجية فإنها كانت تتم مع بقية بلدان المغرب العربي والأقطار العثمانية بالشرق، بالإضافة إلى الدول الأوروبية التي ما فتأت أهمية التبادل التجاري تتزايد معها، فالتجارة مع تونس والمغرب وبقية الأقطار العثمانية بالشرق كانت تعتمد على الحاجات الكمالية، أما التجارة مع بلاد السودان فكانت تعتمد على الحاجات الضرورية للعيش، ومع هذا فإن التجارة مع الأقطار الإفريقية والإسلامية لا تمثل غير جزء ضئيل بالنسبة للتبادل التجاري مع الدول الأوروبية رغم جو العداوة والأضطراب الذي كان يسود العلاقة بين هذه الدول الأوروبية وولاية الجزائر، وكانت الدول الأوروبية وبالخصوص فرنسا تستورد المواد الأولية المتوفرة بكميات تجارية كالأصواف والجلود والشمع والزيوت والحبوب مقابل تصدير المواد الكمالية³.

¹ عمار عمورة، نبيل داوودة: المرجع السابق، ص 233.

² أقيمت دار لصك العملة ومن العملات المحلية نجد الريال والسلطاني الذهبي الذي يعادل 11 فرنك وكانت العملة المحلية للجزائر تحتوي على نقوش وحروف عربية على كل وجه وتخلو من صور الحكام والشعارات وتحمل عبارة "ضرب في الجزائر" على أحد الوجهين وكانت دائرية الشكل مصنوعة من الذهب، الفضة، البرونز أو النحاس، بالإضافة إلى وجود عملات أجنبية تأتي على شكل هدايا وإتاوات ومن عمليات افتداء الأسرى (ينظر: ناصر الدين سعيدوني: النظام المالي، المرجع السابق، ص 180-183).

³ ناصر الدين سعيدوني: النظام المالي، المرجع السابق، ص 38-40.

المفصل الأول



بنيّة مجتمع الجزائر العثمانية



1 - سكان المدن

كان سكان المدن في العهد العثماني ينقسمون إلى فئات متعددة حسب الأصول والجهات التي ينتمون إليها¹، وقد تشابهت المدن الجزائرية الكبرى في ذلك، وكنموذج لها سنقتصر على سكان مدينة الجزائر التي أمكن لها أن تستقطب كل الفئات لكونها عاصمة البلاد²، فكانت موجودة على النحو التالي:

1-1 فئة الأتراك:

يصنف هايدو (Haydo) الأتراك إلى صنفين أتراك بالأصل، وأتراك بالمهنة، يقصد بالصنف الأول الأتراك القادمين من الأناضول وباقي أجزاء الدولة العثمانية إلى الجزائر، أما الصنف الثاني أتراك العقيدة "الأعلاج" وهم المسيحيون الذين دخلوا في الإسلام فأصبحوا أتراك³، فكانوا عثمانيون بالمهنة ومسيحيون بالدم والأصل ويشكلون غالبية فئة الأتراك.

تحتل فئة الأتراك قمة الهرم الاجتماعي ويمثلون أعلى السلم⁴ تضم في صفوفها القادة العسكريين والموظفين السامين من السياسيين والإداريين والجنود⁵، وقد إحتل هؤلاء مكان الصدارة بين السكان فهم يستأثرون بالحكم ومعظم الوظائف السامية للسكان.⁶ وقد قدر عددهم ب 5 آلاف عام 1789م ونقص إلى 4 آلاف في عام 1830م،⁷

¹ مبارك الميلي: تاريخ الجزائر في الحديث والقديم، ج 3، مكتبة النهضة الجزائرية، الجزائر، ص 315.

² صالح عباد : المرجع السابق، ص 355.

³ فارس كعوان: النظام العثماني والفئات الاجتماعية في الجزائر - الكراغلة نموذجاً، 1629-1830، رسالة ماجستير، قسم التاريخ، جامعة قسنطينة، الجزائر، 2004-2005، ص 26 .

⁴ أبو القاسم سعد الله : تاريخ الجزائر الثقافي (1500-1830) ، ج 1 ، 6 ، دار البصائر ، الجزائر ، 2009 ، ص 153.

⁵ عمار عمورة ، نبيل داوودة: المرجع السابق، ص 225.

⁶ فارس كعوان: المرجع السابق، ص 26 .

⁷ عمار عمورة، نبيل داوودة: المرجع السابق ، ص 173.

ومما يميز هذه الفئة أنهم كانوا ينظرون للسكان نظرة استعلاء واستحقار¹، لدرجة أن تركي واحد بإمكانه زعزعة مدينة مأهولة بالسكان المحليين كما أورد كعوان نقلا عن لوجي دو تاسي² (Lodji Dutasi)، وكانوا يشكلون فئة منغلقة منعزلة عن المجتمع الجزائري³ ودافعهم في ذلك رغبة الجماعة التركية في إبقاء هيمنتها على المناصب الحكومية وصيانة تقاليدها الخاصة في نظم العيش والسلوك، فالتركي فخور بعمله العسكري وبلغته الأصلية⁴. ورغم أنهم وفدوا إلى الجزائر من أصول شتى إلا أنهم منسجمون مع بعضهم ويسود بينهم الانضباط⁵.

وكانت هذه الفئة تقيم في الثكنات والحصون والحاميات المنتشرة عبر الوطن بصفة جماعية تعيش حياة العزوبية، وهذا بسبب عدم سماح الحكام الأتراك لهم بمصاهرة العائلات الجزائرية وكان على أعضاء الميليشيا الذين يتزوجون أن يجدوا منازل لهم في غير هذا المكان.⁶

تمتع الأتراك بإمكانيات كبيرة وكان لهم أولوية في كل شيء، واستطاع العديد منهم تجميع ثروات طائلة في مدينة الجزائر، وغالبا ما كان الأتراك يفضلون الإقامة في أراضيهم والابتعاد عن الحياة السياسية ويؤكد شارل (Charl) ذلك : (أن حظوظ الأتراك الذين يبقون بعيدين عن الحياة السياسية أكثر استقرارا من حظوظ أولئك الذين تدفعهم المطامع إلى كسب الثروة والجاه، وهي مزايا تعرض صاحبها دائما للخطر).⁷ ونظرا لهذه الأوضاع الخاصة التي تعيشها الأقلية التركية الحاكمة أصبحت علاقتها مع بقية السكان

¹ ناصر الدين سعيدوني : النظام المالي، المرجع السابق، ص 43.

² فارس كعوان: المرجع السابق، ص 26.

³ صالح عباد: المرجع السابق، ص 356.

⁴ ناصر الدين سعيدوني: النظام المالي، المرجع السابق، ص 42.

⁵ فارس كعوان: المرجع السابق، ص 27.

⁶ جون ب وولف: الجزائر وأوروبا 1500-1830، ترجمة أبو القاسم سعد الله، المؤسسة الوطنية للكتاب، ص 162.

⁷ وليام شالر: مذكرات وليام شالر ، قنصل أمريكا في الجزائر، تعريب وتعليق وتقديم اسماعيل العربي ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982، ص 57.

تتصف بالروح العدائية والنفور المتبادل، حتى أن هايدو (Haydo) كان يقول (لا يوجد في الإمبراطورية العثمانية علاقة أسوأ من علاقة الترك بالعرب في مملكة الجزائر)، وقد نتج عن هذه العلاقة السيئة بقاء الأهالي بعيدين عن أي مساهمة جدية في أمور الدولة والحيلولة دون إمكانية اندماج الأتراك بالأوساط المحلية¹.

ورغم هذا لعبت هذه الفئة دورا محوريا في تاريخ الإيالة حيث استطاعت التأثير بشكل واضح في الحياة العامة بالجزائر حيث أدخلوا وسائل حضارية شرقية كالملابس والمأكولات والألقاب والصنائع والتقاليد التي لم تكن موجودة قبلهم².

1- 2_ فئة الكراغلة:

احتلت فئة الكراغلة المرتبة الثانية في الهرم الاجتماعي، وهم أبناء الأتراك من أمهات جزائريات ويشكل هؤلاء طائفة فوق الطوائف الأخرى لكن تحت طائفة الأتراك³، وكانت فئة الكراغلة تطمح بالميلاد واللغة والانتماء العائلي للارتقاء إلى المرتبة الأولى في المجتمع لكن الحكام العثمانيين منعوهم من ذلك⁴، فوجود هذه الطائفة أصلا يعبر بوضوح عن إرادة الأتراك في الحفاظ على نقاوة طائفتهم وعن إرادتهم في تجنب الاختلاط بأهالي البلاد خاصة⁵. وقد رحب الأهالي بهذه الفئة لأنهم بذلك يحصلون على حامي يحميهم من رجال الميليشيا، وكان جل الإنكشارية يصاهرون لنفس الأسباب المختلفة التي كانت تدفع الناس دائما، بعضهم من أجل المال ولعل بعضهم فعل ذلك من أجل العشرة والحصول على منزل⁶.

¹ ناصر الدين سعيدوني : النظام المالي، المرجع السابق، ص 43.

² فارس كعوان: المرجع السابق، ص 28.

³ صالح عباد: المرجع السابق، ص 358.

⁴ أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج 1، المرجع السابق، ص 149.

⁵ صالح عباد: المرجع السابق، ص 358.

⁶ جون ب وولف: المصدر السابق، ص 163.

كان الكراغلة أكثر من فئة الأتراك سواء في مدينة الجزائر أو في البلاد كلها فقد قدر ب 5 آلاف نسمة عام 1808م حسب تقديرات بوتان (Botan) وأكثر من 16 ألف نسمة مقابل 14 ألف تركي في مدينة الجزائر في القرن 18م، وكانوا يشكلون العنصر المهيمن من حيث العدد والنفوذ ولا يقتصر وجودهم على المدن كما هو الحال بالنسبة للأتراك بل كانوا يتواجدون في الأرياف كذلك، ويعود أصل كراغلة الأرياف إلى الذين طردوا من مدينة الجزائر أثناء تمردهم على السلطة التركي¹.

كان الكراغلة يشكلون طبقة وسطى تمارس العديد من الوظائف كالتجارة والمهام الإدارية المتوسطة وأيضا الانضمام إلى صفوف الجيش والحصول على امتيازات العثمانيين ومع مطلع القرن 19م أصبحت معظم المهام الإدارية بالجزائر من اختصاصهم، كما كانوا هم العنصر المسيطر من حيث العدد والنفوذ فكانوا يملكون الأراضي ويقطنون في أحسن وأجمل الأحياء، إضافة إلى أنهم لعبوا دورا هاما في بعض الأحداث إذ وقفوا إلى جانب الداي على خوجة لإخماد التمرد الإنكشاري في سنة 1817م وساعدهم هذا على الاحتفاظ ببعض الامتيازات وتوليهم المناصب الهامة نتيجة سياسة الترضية ومع نهاية العهد العثماني أصبح مهمهم تنمية ثرواتهم وتنشيط تجارتهم، وهكذا أدت سياسة التقارب إلى حدوث أثر نسبي في العلاقة بين الكراغلة والأهالي إذ أصبح الجزائري ينظر إلى الكرغلي نظرة مساوية للأتراك السادة².

1-3 فئة الحضر

الحضر من السكان الأصليين من الحضر هم الذين يقطنون المدن بصفة دائمة يحتلون المرتبة الثالثة في الهرم الاجتماعي³. وتشكل فئة العلماء والإداريين والتجار

¹ صالح عباد : المرجع السابق ، ص 357.

² ناصر الدين سعيدوني : النظام المالي، المرجع السابق، ص 43.

³ أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج 1، المرجع السابق، ص 97.

والحرفيين. وبالنسبة للعلماء فقد كانوا يمثلون الوسيط الطبيعي بين الحكام والرعايا كما يشكلون الممثل الشرعي لفئة الحضر لدى السلطة العثمانية.

وقد اختلف دور العلماء في المجتمع باختلاف علاقتهم مع الطبقة الحاكمة، وقد شكل العلماء حسب بعض الكتاب فئة منغلقة على نفسها، تعمل على حماية امتيازاتها فقد كان أغلب هؤلاء يمتلكون ملكيات عقارية وكان بعضهم يمارس الأعمال التجارية والحرفية¹، والملاحظ أن العلماء قد تبوؤوا مكانة هامة في السلم الاجتماعي رغم أنهم كانوا أقل ثراء من مجموعة كبار التجار والحرفيين، وذلك لكونهم أول مجموعة طبعت العلاقات مع النظام العثماني.

وبالنسبة لكبار التجار والحرفيين فهم يشكلون حسب بيرك (Berque Augustin) برجوازية الطبقة المتوسطة، وقد كان هؤلاء يعيشون حياة رغيدة نتيجة استثمار أملاكهم الواقعة في فحوص المدن، هذه الأملاك التي أقاموا بها منازل ريفية لا تختلف في شيء عن منازل المدينة.

والعنصر الأخير من فئة الحضر هو ما أطلق عليه بيرك (Berque Augustin) اسم "البرجوازية المتواضعة"، وهي تشمل أصحاب الدكاكين الصغيرة وتجار التبغ والمطرزين والنساجين وصانعو القياطين والحدادين وصانعو الأسلحة ونجاري الأثاث.

وعلى كل فطبة الحضر عموما كانت قانعة بما تملكه من دكاكين وبساتين، وإن كان بعض أفرادها قد تولوا مناصب القضاء والإفتاء والكتابة وبعضهم الآخر كان محل ثقة واحترام الحكام².

أما عن نسبتهم فيقدر طال شوفال (Tal Chouval) أن فئة الحضر في مدينة الجزائر كانت تشكل ما نسبته بين 60 و 65% من مجموع سكان المدينة، أي أنهم كانوا

¹ فارس كعوان: المرجع السابق، ص 29.

² ناصر الدين سعيدوني: النظام المالي، المرجع السابق، ص 45.

يشكلون أغلبية السكان ونجد رأيا مخالفا عند بن منصور الذي اعتبر هذه الفئة التي هي حقا متأصلة في مدينة الجزائر تشكل أقلية مع باقي سكان المدينة، لكن أقلية بوزن مكبير نظرا لتفوقها الاقتصادي والاجتماعي.

والأرجح أن الرأي الأول هو الأقرب للواقع، فقد قدرت عائشة غطاس اعتمادا على وثائق محلية نسبة الحضر في مدينة الجزائر في الفترة ما بين 1799م-1803م حوالي 50.22% من مجموع سكان المدينة، وقد كان الحضر هم العنصر المستقر في المدينة وهم يشكلون القاعدة الاقتصادية والاجتماعية بسبب نشاطاتهم الاقتصادية والحرفية¹.

ومن أهم العناصر المشكلة لهذه الفئة طبقة الأشراف البلديين " وفئة الأندلسيون.

أ- البلديين: هم أهالي ولدوا بالمدينة واستقرت عائلاتهم بها منذ القديم، أغلبهم يزاولون التجارة ويملكون حوانيت وموضوع تجارتهم الرئيسي هو المواد الغذائية، كما يشتغل بعضهم بالصناعة ويملك البعض البساتين التي يعيشون من منتجاتها وهم أحسن وضعية من غيرهم. تتمثل منتجاتهم في القمح والشعير والخضر والحريز والأبقار والأغنام وهؤلاء معفون من الرسوم.

ب-فئة الأندلسيون:

هم الوافدون من الأندلس الذين جاؤوا من ممالك أرغونه، بلنسية، قطلونيا، غرناطة. وهم مقسمين إلى صنفين : مدجنون وهم الذين خرجوا من غرناطة والأندلس والتغريون وهم الذين جاؤوا من بلنسية، أرغونة، قطلونيا²، وقد كانوا أناسا أشداء ورغم كونهم قلة في الجزائر فإنهم مع ذلك كانوا أغنياء جدا في أغلبهم³، وكانوا معتزين بأصولهم التي رأوا منها نوعا من النبل والشرف مما جعل بعضهم لا يميلون للاختلاط مع غيرهم من السكان. كما كانوا أكثر ثقافة وتطور ونشاط من باقي السكان الآخرين فأصبحوا يؤلفون

¹ فارس كعوان: المرجع السابق، ص ص 28-30.

² صالح عباد: المرجع السابق، ص 358.

³ جون ب وولف: المصدر السابق، ص 160.

طبقة ميسورة الحال مع إخوتهم البلديين، وقد اتصفوا برقة الذوق في المأكل والملبس والمتاع، كما تميزت هذه الفئة بلهجتها العربية التي كانت شائعة بغرناطة وحواسر الأندلس الأخرى والتي تأثر بها جماعة البلديين بالمدن الكبرى¹.

استقر الأندلسيون بكثافة في مدينة الجزائر²، والملاحظ أن فئة الأندلسيين قد ساهمت منذ استقرارها في الإيالة مساهمة فعالة في تنمية النشاطات الإقتصادية وكانوا أسياد في الفنون، ففي مدينة الجزائر كان هناك 500 حرفي أندلسي يعملون في صناعة الحرير و200 في صناعة النسيج و46 في نجارة الأثاث و180 في صناعة السكاكين كما ساهم الأندلسيون في تطوير المجال الزراعي حيث قاموا بتحديث نظام ري فعال لتطوير مردود بعض الزراعات كما أدخلوا زراعات جديدة.

وفي المجال الصناعي أقام الأندلسيون العديد من الورشات لمختلف الحرف كالحدادة والنجارة والخياطة والخزف والصناعة الجلدية والصناعة الحريرية.

وقد استطاع الأندلسيون بفضل خدماتهم العسكرية التي قدموها للنظام العثماني بالجزائر أن يحصلوا من هذا الأخير على حق شغل بعض المناصب الإدارية، وهذا ما جعلهم عرضة لمنافسة فئة البلديين كما جر عليهم ذلك نقمة بعض العناصر من فئة الأتراك³.

1-4 فئة البرانية:

إن كلمة برانية تشير إلى فئة أو مجموعة غريبة عن المدينة يقيمون فيها دون أن يكونوا حضريين، حافظ أغلب أعضاء هذه المجموعة على خصوصياتهم، وقدم هؤلاء إلى المدينة في الأصل لربح المال وبقيت عائلاتهم في الواحات أو القرى البعيدة.

¹ ناصر الدين سعيدوني: دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر العهد العثماني، المرجع السابق، ص 144 ، 143 .

² كما تواجدوا في مدينة البليدة وإمتلكوا فيها الأراضي وفي مدينة القليعة ومن المدن التي وجد الأندلسيون أيضا دلس وشرشال وعنابة كما استقروا في كل من أرزيو ومستغانم وتلمسان . (ينظر: فارس كعوان: المرجع السابق، ص 32)

³ فارس كعوان: المرجع السابق، ص ص 32-33 .

وبشكل عام فإن البرانية هم أناس بسطاء توجهوا لسوق العمل وليس لديهم إلا مجهودهم العضلي فهم مجردين من وسائل الإنتاج التقليدية شكلوا خزاناً بشرياً لليد العاملة في مختلف الأنشطة الاقتصادية، وكانت فترات الاستقرار وإنشاء المشاريع العمرانية والإقتصادية تساهم في جلب عدد هام من البرانية إلى المدن للعمل في هذه المشاريع، وخضعت هذه الفئة لتنظيم شبيه بالنظام الساري على الجماعات الحرفية حيث انتظمت في شكل جماعات حسب أصولها الجهوية. يتصدر جماعات البرانية أمين يقع تعيينه من طرف الداي في دار السلطان ومن طرف البايات في الأقاليم.

و كان الأمناء يدفعون ضريبة للسلطة، وللأمين مهام كثيرة فهو مكلف بأمن جماعته والمسؤول عن أفرادها أمام السلطة، كما أنه يتحمل ما يرتكبه أفراد جماعته من تجاوزات ويقوم الأمين أيضا بجمع الضرائب المفروضة على المحلات التي تمتلكها جماعته كما أنه ملزم بتقديم يد العون للمحتاجين مما كان يحصل عليه من أموال.

وإذا وجدنا فئة الحضر توصف من طرف بيرك (Berque Augustin) بالبرجوازية "، فإن فئة البرانية قد وصف بأنها "الطبقة الكادحة" إذ أن أغلب أفرادها كانوا يشتغلون في مهن متواضعة¹.

و أبرز هذه الجماعات السكانية هي:

أ- **جماعة البساكرة:** والتي تتكون من أهالي مناطق الزيبان، واد ريغ، واد سوف توقرت، وهم حوالي 12 قبيلة انطوا تحت البساكرة وكان زعيمهم يعرف بالبسكري². وكانت أعمالهم تتمثل في احضار المياه إلى المنازل وتنظيف الشوارع وقنوات المياه وحفر الآبار وكذا حمل البضائع وجمع الأوساخ³.

¹ فارس كعوان: المرجع السابق ، ص ص 33-35.

² ناصر الدين سعيدوني: الشيخ المهدي البوعبدلي الجزائر في التاريخ (العهد العثماني)، ج 4، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر، ص 200.

³ عبد القادر حليمي: مدينة الجزائر نشأتها وتطورها قبل 1830، ط1، الجزائر ، المطبعة العربية دار الفكر الإسلامي 1979، ص 266.

ب- جماعة بني ميزاب: ينتسب إليها السكان المنحدرون من غرداية وبني يزقن ومليكة، وبريان، والقرارة، بالإضافة إلى سكان بني ميزاب ومناطق الشعانية (عروش غرداية) وورقلة وهم من أتباع المذهب الإباضي وقد تخصص أفرادها في تسيير وإدارة الحمامات ومطاحن الحبوب، كما كان منهم البقالون والجزارون وكذلك بيع اللحوم ونقلها مع البضائع، كما اشتغلوا بالمقاهي والدكاكين والمتاجرة بريش النعام والعبيد. وقد بلغ عددهم في القرن 19م حوالي ألف نسمة وعرفت هذه الفئة بتفانيها في العمل والحرص على وجود السلع ونزاهتها¹، وهم أغنى مجموعات البرانية.

ج- جماعة القبائل : القبائل تسمية مشتقة من الكلمة العربية قبيلة ويطلق هذا الاسم على سكان الجبال ويقطنون قرى يسمونها دشرة انحدروا من المناطق القريبة من المدن الكبرى²، وكانوا يأتون من مملكة كوكو وإمارة بني عباس، وكانوا يعيشون في أكواخ وغرف يكترونها ويشتغلون خدما عند الأتراك أو الحضر أو الأغنياء، أو يعملون في بساتين الكروم أو يعملون بالتجذيف على ظهور السفن ومنهم من كان يبيع الأعشاب والفواكه والفحم والزيت والزبدة والبيض ... وقدّر عدد أسرهم بحوالي 700 أسرة إضافة إلى العزاب منهم³.

د- جماعة الأغواطيين: ينتسبون إلى مدينة الاغواط وقبيلتي الزناخرة وأولاد نايل ويرجعون إلى العناصر النازحة من الجنوب وهم فئة قليلة العدد والأهمية إذ يقومون بأعمال متواضعة كاستخلاص الزيوت والمتاجرة فيها ويشتغل البعض الآخر في نقل البضائع وأعمال التنظيف وأيضا الكيل والوزن في الأسواق⁴.

¹ ناصر الدين سعيدوني المهدي بوعبدلي: المرجع السابق، ص 101.

² وليام شالر: المصدر السابق، ص 114.

³ صالح عباد: المرجع السابق، ص 360.

⁴ ناصر الدين سعيدوني : النظام المالي، المرجع السابق، ص 45.

وقد اندمجت فئة البرانية في نسيج حضري عبر نظام الجماعات التي تعمل أحيانا كנקابة حرفية وتأطير طائفي، وهذا النظام الذي هو أحيانا إداري اجتماعي مهمته مراقبة هذه الجماعة كما يعمل أيضا كهيكل رسمي للألفة التضامنية لأعضائه وهو قادر على تزويدهم بعدد وافر من الخدمات كالعمل والسكن والمساعدة المادية¹.

هـ- **جماعة الجبيلية:** يعتبرون من اقدم العناصر البرانية المستقرة بالجزائر وهو سكان مدينة جيجل الذين اعتادوا الهجرة إلى مدينة استقرار الأخوين بربروس ومن معهم بالأتراك بجيجل وانتقالهم بعد ذلك الى مدينة الجزائر وقد تمكن الكثير منهم الحصول على ثروات وامتلاك المخازن² وامتحنوا مهنة طهي الخبز للانكشارية اعتراف لمؤازرتهم للأتراك³.

1- 5_ فئة الدخلاء :

تعتبر طبقة الدخلاء متميزة لأسباب دينية وحضارية ولذلك تعتبر دخيلة، تضم جماعات الأسرى المسيحيين واليهود⁴.

أ- **اليهود:** يرجع التواجد اليهودي بالجزائر إلى آلاف السنين، وكان العهد العثماني هو الفترة التي عرفت فيها الحياة اليهودية تطورات عديدة على جميع الأصعدة والتي غيرت بنيتها الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، وأثرت على هيكلتها الطائفية الداخلية وحتى على دورها السياسي، وقد تكونت فئة اليهود التي تواجدت بالجزائر من ثلاث مجموعات هي: الطوشايم أو اليهود الأهالي، الميغورشم أو اليهود الوافدين من الاندلس، يهود ليفورنه⁵.

¹ فارس كعوان: المرجع السابق، ص 35.

² زولايخة اسماعيلي : المولودة علواش، تاريخ الجزائر من فترة ما قبل التاريخ الى الاستقلال، ط1، دار انفو للنشر والتوزيع ، 2013، ص334 .

³ درقاوي منصور: الموروث الثقافي في العهد العثماني في الجزائر ، مذكرة ماجستير ،جامعة وهران ، 2014- 2015، ص18.

⁴ ناصر الدين سعيدوني : النظام المالي، المرجع السابق، ص 46.

⁵ فارس كعوان : المرجع السابق ، ص 38.

الذين كان لهم شأن كبير في الوساطة التجارية بين أوروبا كما هو الحال بالنسبة لعائلي بكري وبونشناق¹.

حيث أن العائلتين اليهوديتين حصلتا على ثروتها بالمرافعة والحيلة والمكر وانتقلت إحدهما بعد ارتباطها بالحكم العثمانيين من التجارة البسيطة في العطارة إلى الثراء الطائل على حساب المسلمين².

وكان عدد اليهود أواخر عمر الإيالة مدينة الجزائر حوالي 5000 نسمة وكانوا يتمتعون بحرية تامة في ممارسة عقائدهم الدينية وبصفتهم رعايا جزائريين يتمتعون بحرية التنقل والإقامة حيث يرغبون وبممارسة المهنة التي يرونها في حدود القانون واليهود غير قابلين للاسترقاق³.

واليهود بصفة عامة كانوا محتقرين من طرف الأهالي فاليهودي يعامل معاملة العبد وحين يكون لشخص ما عمل لا يليق به فإنه يأخذ اليهودي ليقوم بذلك العمل⁴.

وكان لليهود سمعة سيئة لدى معظم الملاحظين الأوروبيين ولعل سبب ذلك أنهم كانوا في منافسة اقتصادية معهم ويخبرنا أولئك الملاحظون أن اليهود كانوا خبثاء وحيالين وغشاشين وغير أمناء⁵. وقد منع اليهود من بعض الحقوق فمثلاً لا يسمح لهم يحمل أي نوع من أنواع السلاح أو ركوب الخيل وهم مرغمون على لبس ألسبه بيضاء أو سوداء ليميز عن غيرهم⁶ مارس اليهود الكثير من المهن أهمها الحرف والتجارة وكانت لهم

¹ فوزي سعد الله : يهود الجزائر هؤلاء المجهولين ، شركة دار الامة للطباعة والنشر ، 1995 ، ص 120.

² حمدان بن عثمان خوجة المرأة: المرأة تقديم وتعريب وتحقيق محمد العربي الزبيري المؤسسة الوطنية للفنون، المطبعية، الجزائر، 2006، ص ص 158-159.

³ وليام شالر: المصدر سابق ، ص 89.

⁴ فندلين شلوصر : قسنطينة ، أيام أحمد باي (1832-1837) ترجمة وتقديم أبو العيد دودو، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع الجزائر، 1977، ص 82.

⁵ جون ب وولف: المصدر السابق ، ص 167.

⁶ عبد الحميد أبي زيان بن أشنهو: دخول الاتراك العثمانيين إلى الجزائر، ص 90.

متاجر فكانوا بقالون وخياطون وصانعوا الزجاج بالإضافة إلى سك العملة وصناعة المجوهرات خاصة الحلي والمرجان وكذا بروزهم في بيع الغنائم والخمر واللحم¹.

وتقسم الطائفة اليهودية إلى ثلاث طبقات رئيسية حسب المستوى المادي والمعيشي طبقة غنية ومتوسطة وفقيرة ومن الملاحظ أن الطبقة الثرية تألفت خاصة من اليهود الليفورنين وبعض يهود الأندلس بينما كانت الطبقة الفقيرة والتي احتلت أسفل البناء الاجتماعي اليهودي أكثرها من اليهود الأهالي المنصهرين في المجتمع المحلي².

ب - المسيحيين:

يشكل المسيحيون الطبقة الثانية من أهل الذمة المتواجدين في إيالة الجزائر بعد اليهود³، معظمهم جاؤوا من شواطئ البحر المتوسط أو المناطق القريبة من البحر من جهة المحيط الأطلسي، كما فيهم من جاء من روسيا وألمانيا والجزر البريطانية والبلاد الاسكندنافية وشمال فرنسا. ومعظمهم كانوا بحارة وآلاف من القرويين ومئات من أهل المدن الذين اعتقلوا كغنائم فهم كانوا أنواع منهم النبلاء وكبار المالكين وضباط السفن والتجار والمسافرين والبرجوازيين، بالإضافة إلى رجال البحر العاديين والفلاحين الفقراء. وكان الأغنياء وأصحاب الوجاهة يفتدون أما البقية فيبقون مسترقين⁴.
كان عدد الأسرى كبيرا لكنه يتغير من حين لآخر بسبب ظروف عمليات الأسر، وكذا أعمال الافتداء التي كانت تقوم بها الجمعيات الدينية المسيحية⁵.

¹ عمار عمورة : الجزائر بوابة التاريخ (الجزائر خاصة ما قبل التاريخ إلى 1962)، ج 2، دار المعرفة 2009 ، ص75.

² محمد دادة : اليهود في الجزائر خلال العهد العثماني منذ مطلع القرن 18 حتى 1830 رسالة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، قسم التاريخ، جامعة دمشق، 1985، ص ص51-53.

³ فارس كعوان: المرجع السابق، ص 41.

⁴ جون ب وولف: المصدر السابق، ص 207.

⁵ فارس كعوان: المرجع السابق، ص 41.

وقد انخفض عددهم بشكل حاد في القرن 18م إذ يقدر بين مائة ألف ومائتين وخمسين ألف أسير¹، وقد كان عدد الأسرى في بعض السنوات أكثر منه في سنوات أخرى² وذلك بسبب ضعف نشاط البحرية الجزائرية في تلك الفترة³.

وفي حالة ما إذا اعتنق المسيحي الإسلام فقد أصبح في طريقه إلى الحرية فلا يقوم بعمل شاق كما أنه من السهل عليه التخلي عن التزاماته في الخدمة العبودية". وكان الزواج بين الأرقاء والمحربين موجود فتخبرنا عدد من الكتابات عن اهتمام النساء بالأرقاء وتطوير علاقات متينة، وهناك حالات ثبت فيها أنه بعد وفاة الزوج أصبح الرقيق مسلما وزوجا لأرملة وهذه العلاقة وجدت بالمعكوس حيث كان النساء المأسورات صالحات للزواج من أسر برجوازية راقية، ومن الواضح أنها لا تتعرض للإهانة وأكد أن مثل هذا الزواج كان أفضل من وضعية وصيفة في البيت مدى الحياة.

كان وضع المسيحيين مختلفا كثيرا فبعضهم كان يعمل جذافا في البحر وبعضهم عمل في مقالع الحجارة وفي المزارع وشق الطرق أو عمليات البناء، غير أن هناك من كانوا خدما مترفين عاملين في البيوت كأفراد في العائلة يرتدين ثيابا فاخرة، وكان عملهم خفيف وقد يكون أيضا عملا هاما، وكان آخرون يديرون الخمرات وكانوا أصحاب حرف وحتى نظارا وصناعا مهرة في أحواض صناعة السفن⁴، وقد كان بعض هؤلاء الأسرى يوجهون إلى تكتات الانكشارية لكي يقوموا بخدمة الجنود الأتراك.

¹ وجد الأسرى المسيحيون في عواصم الأقاليم ففي مدينة قسنطينة اشار الضابط الروسي كوكوتشوف انه كان بها على عهده 1767م عدد من اليونانيين والفرنسيين وفي معسكر عاصمة إقليم الغرب قبل تحرير وهران وجد عدد من المسيحيين قدر بخمسون شخصا واغلبهم من الفرنسيين، وبحديثنا عن حياتهم فان عبيد الباي يكسون كل سنة ولهم جزء من العوايد، أما العبيد الذين يعملون في قصر الداوي أو في منازل باقي الشخصيات الكبرى فهم يتغذون جيدا ويرتدون ملابس فاخرة. (ينظر: فارس كعوان: المرجع السابق، ص 43).

² فتحة الوليش: الحياة الحضارية لبابك العرب، رسالة ماجستير معهد التاريخ، جامعة الجزائر، 1994، ص 118.

³ فارس كعوان : المرجع السابق، ص ص 41-44.

⁴ جون ب وولف: المرجع السابق ، ص 171.

والملاحظ أن الأسرى المسيحيين إذا توفرت فيهم شروط معينة كحسن المظهر والسلوك الحسن والثقافة يوجهون إلى الخدمة الإدارية، وبإمكان البعض منهم الوصول إلى مناصب هامة وذلك ما حدث مع الأسير تيدنا Tidna، الذي أصبح من أشد المقربين لباي الغرب محمد الكبير.

وبالنسبة للأسرى الموضوعين في السجون فقد عين على رأسهم أسيرا له صفة كاتب يقوم كل ليلة بمراجعة الدفتر المسجل عليه أسماء الأسرى، وعدا هذا فانه يوجد الكاتب الكبير للعبيد الذي يتمتع بمكانة هامة لدرجة أنه ينسى بأنه عبد لكن هذه المكانة في الغالب تشتري حيث يدفع صاحبها ألف سكة جزائرية للبايك وعدا الفوائد التي يجنيها هذا الكاتب الكبير من الحالة التي يعمل بها، فإنه يتمتع بحقوق أخرى كحقوق فديات العبيد وعوائد البايات والقياد، وله الحق في أن يكون أول من يفتدى عندما يقدم مفتديو الأسرى إن رغب في ذلك¹.

وبعد هذه الدراسة يمكن التوصل إلى أن المالكين كانوا يتعاطفون مع أرقائهم ويعاملونهم معاملة حسنة، رغم أن الهدف الأساسي للأرقاء الرغبة في الحرية العودة إلى الأوطان والأهل²، وعلى عكس ما صورته كتابات آباء الكنيسة من أن الأسرى المسيحيين كانوا يعاملون بقسوة ويجبرون على التخلي عن دينهم والدخول بالقوة في الإسلام فإن هؤلاء الأسرى لم يكونوا مرغمين على تغيير دينهم، بل بالعكس من ذلك فإن كل من كان يفكر في ذلك ينال عقاب شديدا من سيده، وقد أكد ذلك فانتور دو بارادي (Venture de paradis) حين قال إن البايك لا يسمح أبدا للأسرى المسيحيين في الدخول في الإسلام، والداي الحاكم يقر ذلك بقوة الضرب بالعصى لبعض الأسرى الذين يخطر ببالهم هذا الشيء.

¹ فارس كعوان: المرجع السابق، ص 43.

² جون ب وولف: المصدر السابق، ص 238.

ولم يكن الموقف الرسمي من الأسرى المسيحيين متطابقا في كثير من الأحوال مع الموقف الشعبي¹. وقد استثمر النظام العثماني هذه الفئة نظرا لما تملكه من كفاءات فشارك الأسرى المسيحيون في الحروب التي كانت تقودها القوات النظامية ضد الأعداء، وهكذا فقد استطاع النظام العثماني تأطير هذه الفئة مثل غيرها من الفئات الأخرى².

ج - الزنوج: هي طبقة دخيلة عن المجتمع تتألف من العبيد السود³ والزنوج وهم الذين كان ينقلهم التجار من إفريقيا كالسودان والحبشة والنيجر وتقوم قبائل من نواحي من واد سوف باستيرادهم من هناك ينقلون إلى بسكرة، بوسعادة، مسيلة⁴.

وكانوا موضوع تجارة مربحة بالنسبة للأتراك والكراغلة وحضر مدينة الجزائر إذ اقبلوا على اقتناء هؤلاء العبيد⁵.

وقدر عدد الزنوج لمدينة الجزائر عشية الاحتلال الفرنسي بألفي شخص من الجنسين، وبالنسبة للحياة التي يحيها الزنوج فهي أفضل بكثير من تلك التي كانوا يعيشونها في بلدانهم فغالبا ما ينتهي بهم الأمر بأن يصبحوا جزءا من العائلة التي يعملون عندها، ومن ناحية أخرى فلم يكن هنالك داع لفرارهم فالزنوج الهاربون يتم القبض عليهم بسرعة إلا إذا تمكنوا من الوصول إلى القبائل الداخلية التي تستقبلهم بطيبة خاطر، وقد وجدت عدد من مستوطنات قدماء العبيد في بلاد القبائل، بالإضافة إلى تواجدهم في منطقة القبائل فان البعض من الزنوج قد غادر مدينة الجزائر متوجها إلى الضريح للاحتفاء بقربه⁶.

¹ ففي مدينة قسنطينة مثلا كان السكان يكونون عداء كبيرا لهذه الفئة رغم ان الباي كان لديه عدد من الأسرى المسيحيين لخدمته أغلبهم إيطاليون وكان طبيبه الخاص من نابولي. (ينظر فارس كعوان المرجع السابق ، ص 44).

² فارس كعوان: المرجع السابق، ص ص 42-44.

³ مؤيد محمود المشهداني وسلوان رشيد: أوضاع الجزائر خلال الحكم العثماني (1519-1830م) مجلة الدراسات التاريخية والحضارية، مج5، العدد16 ، أوت 2013، جامعة تكريت العراق ، ص333.

⁴ فارس كعوان: المرجع السابق، ص 36.

⁵ صالح عباد: المرجع السابق، ص 360.

⁶ فارس كعوان: المرجع السابق ، ص 36.

وبصفة عامة فإن الزوج يظهر وفاءا حقيقيا نحو أسيادهم، فالشخصيات الكبرى تعهد بطيبة خاطر لهؤلاء بحراستها وحراسة ثرواتها، وغالبا ما يلجأ هؤلاء الأسياد بإعتاق عبيدهم الزوج، كما يمنحون الحرية للزنجيات اللواتي يكون لهم منهن أطفال. وقد زادت أهمية الزوج نظرا لكونهم مطلوبين بشكل خاص للخدمة في منازل العائلات الغنية، كما أنهم كانوا يدخلون ضمن الضرائب العينية التي كانت تقدمها بعض المناطق للسلطة العثمانية في الجزائر¹.

ونجد أن الفتيات الزنجيات من مطلوبات بشكل خاص سواء لتكن حضيات لدى كبار الشخصيات، أو لتقدمن في صداق الفتاة المتزوجة ولهذا نجد أن سعرهن يمكن أن يصل الى 500 بوجو، بينما لا يتجاوز سعر الفتى القوي 200 بوجو، ولا يزيد سعر الزنجي الصغير عن 80 بوجو، وهي مبالغ بسيطة بالنسبة للعائلات الثرية والتي لا توجد إلا قلة نادرة منها من لا تملك زنجيا أو زنجية للخدمة في البيت، وعند كبار الأثرياء يمكن أن نحصي حتى عشرين زنجيا، وقد كان للقاضي المالكي بمدينة الجزائر إثني عشر زنجيا لخدمته.

وقد انتظم الزوج الأحرار بالمدن على شكل جماعات تحت رقابة واحد منهم يدعى قايد الوصفان" وكان يدعى أيضا قايد العبيد" أو شيخ العبيد" وله نفس الاختصاصات التي لدى أمناء باقي الجماعات.

غير أنه يحكم رؤوسيه بصرامة أكثر من باقي الأمناء ويقوم قايد الوصفان بشراء هؤلاء وتحريرهم إذا اشتكوا من معاملة أسيادهم. ويزاول الزوج الأحرار مهنة الجزارة وغالبا ما يكونون في خدمة الميزابيين والبعض منهم جباسين أو صانعي حصائر منسوجة من القصب والبعض اختار تبييض بيوت المدينة بماء الجير كما مارس الزوج أعمال البناء.

¹ فالأغواط مثلا كانت تدفع ضريبة سبعة زواج لداي الجزائر حتى يسمح لها بحق شراء الحبوب من التل". (ينظر: فارس كعوان: المرجع السابق، ص 36).

واستفاد النظام العثماني من فئة الزوج فأدخلهم في الخدمة العسكرية نظرا لصفات الطاعة والإخلاص التي كانوا يتمتعون بها.

وهكذا فإن الزوج الذين شكلوا فئة غير متأصلة في المدينة تواجدوا بكثافة في عدد من المناطق وقد عرف النظام العثماني كيف يستثمر هذه الفئة بما لديها من خصوصيات¹.

2- سكان الأرياف

تهيمن على الأرياف الحياة القبلية سواء في الصحراء أو في السهول العليا أو في المناطق الجبلية والسهلية حتى الجماعات التي ليست لها علاقة قرابة انتظمت في تنظيمات قبلية وامتد تأثير هذا الأخير حتى إلى المدن حيث نجد حياتها امتدادا لقبيلة أو جهة من الجهات².

كان سكان الأرياف يشكلون 90% من المجموع السكاني وكانوا يجتمعون في القرى ويقطنون بمنازل من آجر أو من الحجارة وسقفها من التين أو من الطين³، وكانت مواردهم المعيشية تختلف فسكان الجبال كانوا يعيشون من زراعة قطع صغيرة من الأرض يستثمرونها إلى أقصى حد، أو يعيشون من صناعة الفضة مثل بني بني في القبائل أو من صناعة البارود مثل بني سنوس أو من صناعة الخزف أو السلاح أو الزيت، أما سكان السهول فقد كانوا يشتغلون بالزراعة وتربية المواشي سواء في نطاق استثمار الأراضي العروشية أو باكتراء المراعي، وهم ينقسمون إلى أغنياء يعيشون في خيام فخمة أو في المنازل الكبيرة، وفلاحون يعيشون داخل الأكواخ ولا يكادون يستخرجون من عملهم ما يسد تكاليف الملابس والمأكل⁴.

¹ فارس كعوان: المرجع السابق، ص ص 36-37.

² صالح عباد: المرجع السابق، ص 362.

³ أندري بريان وآخرون: الجزائر بين الماضي والحاضر ترجمة اسطنبولي رايح ومنصف عاشور، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1984، ص 208.

⁴ مبارك الملي: المرجع السابق، ص ص 316-317.

ويمكن أن نصنف سكان الأرياف والبوادي حسب موقفهم من الحكومة التركية إذ نجد قسم منهم متعامل مع الحكام الأتراك، وقسم خاضع مباشرة للسلطة التركية وقسم ثالث يعيش مستقلا عن النفوذ التركي بعيدا عن سلطة وتحكم رجال البايك¹.

2-1- قبائل الرعية:

هم سكان القرى والدواوير الخاضعين مباشرة لسلطة البايك والمراقبين من طرف قبائل المخزن² لم تحض بأي امتياز من السلطة التركية وكانت تدفع الضريبة والرسوم المختلفة، كما كانت تفرض عليها أعمال السخرة. وكانت وضعيتها أسوأ من وضعية تلك القبائل التي لم تكن تخضع للسلطة المركزية³ وقد تعرضت لكل صنوف الضغط والاستغلال الأمر الذي دفعها في الأحيان إلى شق عصا الطاعة لدى الحكام الأتراك وحلفائهم قبائل المخزن أملا في تحسين ظروفها المعيشية أو تحت تأثير التحريضات الخارجية⁴.

وضمن هذه القبائل اندرجت قبائل الأحلاف التي كانت تتبادل الخدمات والمصالح مع السلطة، وهم عبارة عن زعماء محليين ذوو عقلية قبلية معروفين بنفوذهم الديني وأصالة نسبهم لا يخضعون مباشرة لسلطة الداي لكن يدفعون له إتاوة مقابل احتفاظهم بنوع من الاستقلال الذاتي⁵، وعمل البايات إلى التقريب إليهم بالمصاهرة والهدايا ولاشك أن هذه السياسة كانت لإستغلال مركز هؤلاء لصالح الحكم التركي⁶.

¹ ناصر الدين سعيدوني: النظام المالي، المرجع السابق، ص 49.

² عمار عمورة، نبيل داوودة: المرجع السابق، ص 227.

³ صالح عباد: المرجع السابق، ص 367.

⁴ ناصر الدين سعيدوني: النظام المالي، المرجع السابق، ص 49.

⁵ ومن بينهم نذكر عائلة المقراني بمجانة وأولاد سيدي الشيخ بالجنوب الوهراني وشيوخ عمورة والحناشنة والداوودة وأمراء بني عباس وأولاد عاشور وأولاد عز الدين (ينظر : عمار عمورة ونبيل داوودة: المرجع السابق، ص 227).

⁶ عمار عمورة، نبيل داوودة: المرجع السابق، ص 227.

وكان القادة أسياد في مناطق نفوذهم يجوبون الضرائب يفرضون أعمال السخرة ويجمعون الغنائم دون تدخل مباشر من السلطة المركزية، لكن هذه السلطة تحاربهم حين تشعر بأن قوتهم زادت وأصبحت تهددها¹.

وظل الشعور المعادي للأتراك قويا بين القبائل فهذه القبائل لم تكن تعترف بالزعامة عليها إلا شيوخها الوارثين الذين ينتمون إلى أسر نبيلة من أصل محارب².

2-2- قبائل المخزن:

هي عبارة عن تجمعات سكانية موالية للحكام للأتراك تمتلك أراضي زراعية خصبة وتتولى الدولة تجهيزهم بالسلاح³، وهي قبائل متميزة في أصولها مختلفة في أعراقها، فمنهم من أقره الأتراك بالأراضي التي وجدت عليها لتكون سندا لهم ومنهم من أعطيت لها الأرض لتستقر عليها، ومنهم من استقدم كأفراد مغامرين أو متطوعين من جهات مختلفة ليؤلفوا جماعة شبه عسكرية ترتبط مصالحها بخدمة الحكومة. وبفعل الانتساب والاستقرار والنشأة على أراضي البايك اكتسبت هذه المجموعات البشرية كيانا مستقلا متميزا ولم تعرف من أنسابها القديمة ومواطنها الأصلية إلا ما علق بتسمياتها الجديدة كقبائل الصخارة والعثمانة، في حين اتخذت الغالبية الكبرى من قبائل المخزن تسميات محلية وألقبا خاصة بها استمدتها من مواطنها الجديدة واشتقتها من الوظائف التي كانت تمارسها والمهام التي كانت تقوم بها أو استعارتها من نوع السلاح الذي تحمله⁴.

¹ صالح عباد: المرجع السابق، ص 363.

² شارل روبير أجبيرون : تاريخ الجزائر المعاصر، ترجمة عيسى عصفور، ط1، منشورات عويدان، بيروت 13 لبنان، 1982، ص13.

³ عمار عمورة، نبيل داوودة: المرجع السابق، ص 227.

⁴ ناصر الدين سعيدوني: دراسات وأبحاث في (تاريخ الجزائر العهد العثماني)، المرجع السابق، ص 98.

أخذ نفوذ قبائل المخزن يزداد في أواخر العهد التركي مع تراجع قوة السلطة المركزية فتجاوزت صلاحياتها وتمكنت مساحات شاسعة من البايك وحين احتل الفرنسيون الجزائر كانت هذه القبائل أكثر تماسكا وقوة¹.

ومن الآثار التي ترتبت عن تواجد عشائر المخزن التأثير على توزيع الكثافة السكانية بالأرياف الجزائرية، ومرد ذلك إلى إستقرار عشائر المخزن بالمناطق السهلية وحيازتها للأراضي الخصبة تسبب في إحداث ضغط على بقية السكان بالأرياف الجزائرية، ومرد ذلك إلى استقرار عشائر المخزن بالمناطق السهلية وحيازها للأراضي الخصبة تسبب في إحداث ضغط على بقية السكان مما اضطر الكثير منهم إلى الإلتجاء إلى المناطق الجبلية أو السهول المقفرة أو الواحات النائية وهذا أثر في التصنيف الاجتماعي لسكان الريف، بحيث يمكن تصنيفهم إلى قسم متعامل مع الأتراك وقسم خاضع للحكومة وقسم مستقل، أما الأهمية التي تكمن في هذا التصنيف فهي كون عشائر المخزن أصبحت بفضلها تعتبر طبقة وسطى في الأرياف تماثل الكراغلة بالمدن وذلك باعتبارها طائفة اجتماعية تربط الحاكم الى المحكوم وتخدم مصالح الجماعة التركية الحاكمة على حساب سكان الأرياف مما يجعلها تؤلف في نظرنا قوة حربية عازلة لا طبقة اجتماعية رابطة، وعامل تفرق وتشتيت لأهالي الريف لا وسيلة جمع وتأليف بين السكان².

والأثر الايجابي لهذه القبائل ببعض النواحي فهو مساهمتها في تدعيم نزعة الولاء للقبيلة الذي حال دون قيام طبقة أرسطوقراطية مرتبطة بالأرض قادرة على الدفاع عن مصالحها، إلى جانب هذا فقد كانت هذه القبائل عاملا مساعدا إلى الحد من البدوية والانتقال التدريجي من الترحيل إلى الاستقرار في الأرض بعد ثلاث مراحل مرحلة عاشوها تحت الخيام يمارسون الزراعة، ومرحلة ثانية تميل إلى نحو الاستقرار في منازل بسيطة

¹ صالح عباد : المرجع السابق، ص 367.

² ناصر الدين سعيدوني: دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر (العهد العثماني)، المرجع السابق، ص 121-123.

"قراي"، إلى المرحلة الثالثة التي اتخذ فيها الاستقرار شكل تجمعات سكانية عرفت بالدواوير.

كما ساهمت قبائل المخزن بصفة محسوسة في الإسراع بانتشار اللغة العربية¹ في مناطق ظل الأهالي بها يتكلمون بلهجات محلية².

وهكذا نستنتج من كل ما تقدم أن وضعية قبائل المخزن الاجتماعية ساهمت بصورة فعالة في تعميق الصفة الاقطاعية للمجتمع الريفي الجزائري لما تركته من بصمات في مداشير ودواوير الجزائر العثمانية، بحيث لو أردنا أن نجد ميزة المجتمع الريفي آنذاك لما وجدنا أفضل من أن نصفه بأنه فترة إقطاع قامت أثناءها عشائر المخزن بدور الدركي المتنقل، والعين الساهرة على مصالح رجال البايك بالأرياف الجزائرية طيلة الفترة العثمانية التي عاشتها الجزائر في تاريخها الطويل³.

2-3- المرابطون

إسم مرابط مشتق من كلمة ربط التي تعني الالتزام والتعهد أي أن المرباط يعاهد الله على أن لا يتصرف إلا لما فيه خير للإنسانية لذلك فحتى بعد موتهم يبقى هؤلاء المرابطون محل توقير دائم، وتدفن أجسامهم في قبور يحاط بتابوت يمكن أن يلجا إليه كل محرم، وبالتالي فإن المكان يصبح موقرا جدا.

إن وجود هؤلاء المرابطين في المجتمع نعمة، إذ بمجرد ما لهم من نفوذ يستطيعون منع إراقة الدماء وكان هؤلاء المرابطون يتصرفون بلطافة وكياسة ولا يسمحون أبدا بأي

¹ مثل الونشريس وحوض سابا وسهول عريب ومرتفعات القرقور والجهات الشرقية من التيطري وأحسن مثال انتشار اللغة العربية بالسهول العليا المحاذية للأوراس بفضل استقرار قبائل الزمول المخزنية التي اقطعها صالح باي أراضي هناك وبذلك استبدل قبائل عبد النور والتلازمة وقسم من اولاد سلطان واولاد سلام اللهجة المحلية باللسان العربي بعد احتكاكهم معهم . (ينظر: ناصر الدين سعيدوني : وثائق جزائرية، ص 556).

² ناصر الدين سعيدوني: وثائق جزائرية دراسات وابحاث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني ، ط1، دار الغرب الاسلامي ، بيروت، 2000، ص 556.

³ ناصر الدين سعيدوني: دراسات وأبحاث في (تاريخ الجزائر العهد العثماني)، المرجع السابق، ص 125.

تجديد ولا يقومون بأي شيء يمكن أن يتعارض مع كرامة أو عادات الشعب، وبهذا السلوك يحتفظ هؤلاء بنفوذ لا حدود له¹. وقد انتشرت ظاهرة المرابطين بحيث كانت هناك حوالي 115 عائلة مرابطة وهذا العدد لا يتعلق إلا بالعائلات الكبيرة².

إن سلطان هؤلاء على نفوس القبائل الجاهلة المحدودة النظر لعجيب، ويبدو أن الله نفسه يرشدهم ويقودهم فالاعتقاد الشعبي إزاء المرابطين أساسه الجهل والمبادئ الغالطة والتعصب³.

وهكذا فإن قوة المرابطين تكمن في استعمالهم الدين، فالجميع يخشاهم من الأفراد العاديين إلى رجال السلطة من الأتراك، وكان المرابطون ينتقلون في طول البلاد وعرضها دون خوف من هجوم اللصوص وقطاع الطرق عليها، وكان المسافرون يصحبون معهم أحد المرابطين ليتقوا شر اللصوص وقطاع الطرق⁴.

كما أن السلطة التركية نفسها استعانت بالمرابطين في نقل الأموال عبر الطرقات غير آمنة في أوائل القرن 19م⁵.

ويروى أن الأمن اختل بعد سقوط مدينة الجزائر خاصة بعد أن اعتقل مرابط القليعة الذي كان أكثر المرابطين تأثيرا في المنطقة، فالمرابط هو المنقذ وحامي القوافل والحاميات التركية.

ومن هذا لم يكتف الأتراك بأن فرضوا على أنفسهم احترام هؤلاء المرابطين وإنما أصبحوا يقدمون لهم أكبر الامتيازات وأثمنها وصارت أماكن سكنهم بعد الموت مقدسة كما أن القانون لا يمس كل من لجأ إليها، بالإضافة إلى هذا انتفع المرابطون بمزايا عديدة

¹ حمدان بن عثمان : المصدر السابق، ص ص 19-22.

² صالح عباد: المرجع السابق، ص 363.

³ حمدان بن عثمان خوجة: المصدر السابق، ص 20.

⁴ صالح عباد: المرجع السابق، ص 365.

⁵ على سبيل المثال كان المقراني مرابط جيجل مكلف بنقل أجرة الجنود من قسنطينة الى جيجل. (ينظر :صالح عباد: المرجع السابق، ص 365).

كجباية الضرائب والاستفادة من أعمال السخرة ومن الإعفاء الضريبي وكان لبعضهم تجارة قافلة كبيرة كما هو الشأن للتيجانيين وأولاد سيدي الشيخ كما استفاد المرابطون من أملاك الوقف والتي كانت معتبرة.

وهنا يمكن القول أن علاقة السلطة بالمرابطين قد ظلت قائمة إلا أنها في أواخر العهد التركي بدأت تهتز كما حدث في بايلك الشرق في عهد صالح باي، كما حدث في القرن 19 مع طرق جديدة غير التي استمالها الأتراك.

وأخيرا نشير إلى أن أهم دور قام به هؤلاء المرابطون هو سيطرتهم على المنظومة التعليمية التي كانت تعيد إنتاج أنفسهم وتدعم الحكم القائم، لكن هذا لم يمنع من تعامل الكثير من هؤلاء مع الاستعمار الفرنسي في مراحله الأولى¹.

والقسم الثالث من القبائل هي القبائل المستقلة والتي بقي سكانها متحصنين في المناطق الجبلية²، أو ظل ممتعا عن أيدي الحكام بأراضي الجنوب الملائمة لحياة الرعي والترحل.

وينتمي غالبية السكان المستقلين عن السلطة التركية إلى مجموعات قبلية على رأسها عائلات تعتمد في فرض نفوذها على السلطة الروحية أو الكفاءة الحربية³، وتعيش هته القبائل من صناعة الفضة مثل بني يني في القبائل أو زراعة قطع صغيرة من الأرض أو الزيت أو الزرابي⁴.

3-التركيبة الاجتماعية

كانت التركيبة الاجتماعية للجزائر في العهد العثماني تعكس التنوع العرقي والديني للسكان، وقدّر العدد الإجمالي لهم في نهاية هذه الفترة⁵ حسب كتاب المرأة لحمدان

¹ صالح عباد: المرجع السابق ، ص ص 365-366.

² كالأوراس والونشريس والباور والقبائل (ينظر: ناصر الدين سعيدوني: النظام المالي، المرجع السابق، ص 49) .

³ ناصر الدين سعيدوني: النظام المالي، المرجع السابق، ص ص 49-50.

⁴ عمار عمورة، نبيل داوودة: المرجع السابق، ص 227.

⁵ فارس كعوان: المرجع السابق، ص 25.

خوجة: (أن عدد سكان إيالة الجزائر عشرة ملايين نسمة وتتكون هذه الإيالة من مدن وقرى وموانئ وأرياف) ¹، وكانت إحصائيات الاحتلال الفرنسي عام 1856م تقدر عدد السكان في الجزائر ب 23 مليون نسمة فقط. وهنا نلاحظ أن السلطة الاستعمارية لم تكن قد شملت في هذه النسبة كل جهات إقليم إيالة الجزائر في العهد التركي²، ويرجح أن العدد الإجمالي في نهاية الفترة العثمانية كان يتراوح بين 3 ملايين و 4 ملايين نسمة ³. كان هؤلاء السكان موزعين على المدن والقرى والأرياف، لكن أغليبتهم الساحقة كانت تعيش في الأرياف، ويؤكد المؤرخون أن حوالي 90% منهم كان ريفيين، معنى هذا أن سكان المدن كانوا أقل من 300 ألف نسمة انطلاقا من الرقم التقريبي الذي هو 3 ملايين نسمة. ⁴

وكانت نسبة سكان الحضر في الغرب الجزائري أعلى منها في باقي المناطق رغم أنها لم تكن تتجاوز 8% حسب ما ذكر غاليسو (Galissot) ، أما الشرق الجزائري فقد عرف أدنى نسبة للحضر وهي لا تتجاوز حسب نفس الكاتب 3% من مجموع السكان.

ميز التركيبة الاجتماعية تنوع عرقي وديني ومذهبي مما جعل المجتمع الحضري يختلف اختلافا كبيرا عن المجتمع الريفي المتميز بالانسجام والترابط في تشكيلته الاجتماعية⁵.

ومما لاشك فيه أن هناك عوامل أثرت في نمو السكان وأوضاعهم الاجتماعية والثقافية في الجزائر في أواخر العهد العثماني، خاصة الوجود المسيحي واليهودي وهجرة

¹ حمدان بن عثمان خوجة : المصدر السابق، ص18.

² صالح عباد: المرجع السابق، ص 354.

³ فارس كعوان: المرجع السابق، ص 25.

⁴ صالح عباد: المرجع السابق، ص 354.

⁵ فارس كعوان: المرجع السابق، ص 25.

الأندلسيين وأثر الأمراض والأوبئة، وحتى الكوارث الطبيعية على نسق نموهم، كما اتسمت الأوضاع الاجتماعية بالفوضى والاضطرابات¹.

وهكذا تميزت المرحلة الأخيرة في العهد العثماني بفترات عصبية وقاسية أثرت سلبا على الحياة الصحية والمعيشية، كما انعكس الوضع على النمو الديموغرافي وبنية وتوزيع السكان وكثافتهم .

¹ صالح فركوس: تاريخ الجزائر من ما قبل التاريخ إلى غاية الاستقلال (المراحل الكبرى)، دار العلوم للنشر والتوزيع، الجزائر، 2005، ص 170.

خلاصة:

- بعد دراسة بنية مجتمع الجزائر العثمانية يمكننا استخلاص الملاحظات التالية:
- 1- أن المجتمع الجزائري لم يكن مجتمعاً طبقياً كما هو الحال في أوروبا آنذاك وكما تذكر بعض الكتابات، وهذا راجع إلى سيادة روح المؤاخاة والتعاطف والتآزر بين جميع أفراد المجتمع كونه مجتمع متدين بطبعه.
 - 2- أن السلطة التركية في الجزائر ظلت على قطيعة سيولوجية مع المجتمع الجزائري، حيث لم تعمل على الاندماج بالمجتمع الجزائري وهذا ما أدى مع مرور الوقت إلى ازدياد الهوة بين الشعب وبين السلطة وأدى بالتالي إلى ضعف الدولة العثمانية.
 - 3- أهم ما ميز الحكم العثماني في الجزائر هو احتكار فئة الأتراك للسلطة وإبعاد العناصر الغير تركية عن الحكم.
 - 4- كل فئة من فئات المجتمع الجزائري في العهد العثماني كانت تعيش بمنعزل عن الأخرى، وتعيش في قوقعتها الخاصة وتحت نظامها الخاص بها.
 - 5- كانت الجزائر عبارة عن مجموعة من السكان لا يربطهم إلا الدين والانتماء إلى المجتمع الخاضع إلى الحكم التركي، وكانت الجزائر في نهاية هذه الفترة تؤلفها مجموعة ترابية تميزها جملة من المعطيات تكونت عبر قرون طويلة من التطورات.

الفصل الثاني



الحياة الاجتماعية لسكان الجزائر العثمانية



1- المرافق الاجتماعية:

اهتم العثمانيون ببناء القصور والحصون والمساجد والحمامات، وشهدت مدينة الجزائر بصفة خاصة ازدهارا كبيرا في العمران، فشيدت بها قصور جميلة وقنوات المياه والعيون والحمامات والمستشفيات وقلاع ضخمة لا تزال تشهد على عظمة هاته الفترة¹. فتزاوج الذوق المحلي بالذوق العثماني الشرقي فظهر أيضا في القباب والمساجد، وكانت أدوات البناء والزينة من ذلك الرخام والزليج التي تجلب أحيانا من الخارج وخصوصا تونس وإيطاليا، كما اشتهر بهذا الصدد عدد من البنائين والخطاطين والنقاشين وأحيانا يؤتى بهم من الخارج². والملاحظ أن التركيب العمراني قد تم حسبما تتطلبه روح الشريعة الإسلامية، حيث قسمت المدينة إلى جزئين رئيسيين هما الجزء الأسفل من المدينة وفيه كل هياكله، والجزء الثاني شمل المساكن العامة وبعض المؤسسات الثقافية وهو ما يوضح المتصف بالحركة الدائبة لمختلف أنشطة الحياة العامة³.

1-1- المساجد والقصور:

أ- المساجد

كان تشييد المساجد يقع على عاتق المجتمع ويساهم في بنائه الأغنياء والفقراء عن طريق التبرعات مثلما هو جاري اليوم، وإن قام أحد الباشاوات ببنائه فهو عمل فردي من ماله الخاص وليس مال الدولة، والمساجد على نوعين منها المالكية والحنفية⁴. وقد كان يوجد بمدينة الجزائر قبل الاحتلال الفرنسي 13 مسجدا و109 مسجدا صغيرا منها 22 مالكية و14 حنفية و32 زاوية، وكانت أغلب هذه المساجد متوسطة الحجم وليست لها أهمية فنية كبيرة، وكان أكثر هذه الجوامع - بعد الجامع الكبير الذي

¹ يحي بوعزيز: الموجز في تاريخ الجزائر الحديثة، ج 2، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2007، ص 32.

² أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج 1، المرجع السابق، ص 196.

³ محمد الطيب عقاب: قصور مدينة الجزائر أواخر العهد العثماني، دار الحكمة، الجزائر، 2009، ص 27.

⁴ عمار عمورة: الجزائر بوابة التاريخ، المرجع السابق، ص ص 68-135.

يرجع تاريخه إلى عصر المرابطين - هو المسجد الجديد ويسمى أيضا جامع المصيدة ليتعبد فيه الأتراك من الحنفية، ثم مسجد كتشاوة الذي شيد برعاية خاصة من الداوي بابا حسن وذلك في سنة 1794 وهو مزين بزخارف متعددة الألوان، وجامع علي بتشيني ومسجد حاجي حسين باشا، ومسجد الأندلسيين وجامع سيدي عبد الرحمن الثعالبي وزاوية الشرفاء وجامع سيدي محمد بن عبد الرحمن في مقبرة الحامة ويدعى بوقبرين لأنه دفن في المرة الأولى في بلاد القبائل في مسقط رأسه ثم أعاد الأتراك دفنه مرة ثانية في الحامة ولذا يسمى ذو القبرين¹.

وخصص الدايات في القرن 18 م جزء من ثروتهم لبناء المنشآت الدينية، منهم محمد علي باشا الذي شيد جامع السيدة بقرب قصر الجنية الذي يؤمه الموظفون السامون في الإيالة . كما أنشأ الداوي حسين آخر الدايات - جامع القصبة وأعاد بناء جامع صفر².

وتختلف الإحصائيات حول عدد المساجد فيذكر باناتي(Panati)الإيطالي أن هذه المدينة كانت تضم 9 جوامع و50 مسجد، في حين يقول ديفوكس (Difox) أن عددها 13 جامع و9 مساجد و32 قبة و12 زاوية فمجموع ما فيها 176 مؤسسة³، وقدر الأب دان (Dane) أن عدد المساجد 100 معظمها من الحجم الصغير⁴.

كل هذه الجوامع المشيدة مستوحاة من النمط التركي تتميز على حد قول جورج مارسلي (George Marcais) - بقاعة رئيسة تغطيها قبة بزواياها الثمانية وتحيط بها

¹ ونذكر أنه بمدينة قسنطينة كان يوجد خمس جوامع لصلاة الجمعة وتشير تقارير غداة الاحتلال إلى أن قسنطينة كانت كثيرة الجوامع، وفي مدينة عنابة كان يوجد بها 35 مسجد منها جامع سيدي أبي مروان، وتواجد بمدينة تلمسان الجامع الكبير، جامع سيدي بن الحسن، جامع العباد، أما وهران تذكر مسجد الباي محمد الكبير، مسجد الباشا، مسجد خلق النطاح، مسجد سيدي الهواري، ومعسكر فيها الجامع الكبير ومسجد الباي محمد الكبير (مسجد العين البيضاء). (ينظر: مبروك مهيريس المساجد العثمانية بوهران ومعسكر ، ص 47).

² عمار عمورة: الجزائر بوابة التاريخ، المرجع السابق، ص 68-135 .

³ أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج 1، المرجع السابق، ص 147.

⁴ جون ب وولف: المصدر السابق، ص 135-153.

أروقة¹، ومعظم الجوامع كانت تحتوي على محراب ومنبر وصومعة وقناديل الإضاءة والماء للوضوء أو الميضات، ويختلف الفرش من جامع إلى آخر فبعضها غنية حتى كان الفرش مطرزا بالحريز المذهب والبعض الآخر مجرد حصير وسجاد متواضع، وكانت تعلق في بعضها الثريات الرفيعة ذات الألوان الزاهية بينما آخر لا يوجد بها أكثر من حسك قصديرية أو زجاجات عادية، وفي معظم الجوامع توجد مكتبات للقراءة. واتصفت المساجد العثمانية بالخصوص بالأناقة والسعة والعلو في الصوامع والدقة في جمال الشكل².

ب- القصور

كان مسكن الطبقة الأرستقراطية من ذوي المناصب السامية في الدولة والرؤساء وكبار الشخصيات التركية الحاكمة وصفوة الشعب، وتعرف هذه الناحية من العاصمة باسم حي "الرياس" وفيه من الدور والقصور الجميلة كثير³.

وأهم ما يستدعي الانتباه في قصور مدينة الجزائر أن واجهاتها تقع في الأزقة الضيقة بعيدة عن مواجهة الشوارع الكبرى والعامة، والمتميزة بكثرة الحركة النشيطة كما أنها تقع في غير مواجهة نقاط مراكز الجذب العامة كالأسواق والمرافق العامة⁴.

وتميزت القصور بوجود الصحن أو الفناء وسط الدار المجال المركزي والعصب الحيوي في المسكن الأصلي، وهو يتوسط أجزاء مختلفة من القصر تتصل به اتصالا وثيقا، كما احتوت القصور على أروقة فهي واسطة العقد بين الصحن والغرف وأحيانا المرافق الأخرى، وامتازت الغرف في القصور ببساطتها وقلتها وعدم وجود أي تعقيد اللوحات المعمارية في أي طابق، وتتخذ السقيفة مكانا بارزا في المسكن الجزائري

¹ عمار عمورة: الجزائر بوابة التاريخ، المرجع السابق، ص 69.

² أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج 1، المرجع السابق، ص 53-54.

³ عبد الرحمان الجيلالي: تاريخ الجزائر العام، ج 3، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1992م/ 1402هـ، ص 524.

⁴ محمد الطيب عقاب: قصور مدينة الجزائر، المرجع السابق، ص 40-60.

الإسلامي بصفة عامة وفي القصور بصفة خاصة لأنها تقوم مقام غرفة الاستقبال وتأتي مباشرة بعد البوابة.

الرئيسية للقصر . (أنظر الملحق رقم 4 و 5).

وكانت أبواب القصور مركبة ضخمة في المداخل الرئيسية ومتينة وبسيطة وصغيرة في المداخل الفرعية وفي مداخل المرافق العامة والمعيشية. استخدم في زخرفة قصور مدينة الجزائر مواد زخرفية منها الأجر والحجر القرمذ الرخام والخشب والمربعات الزخرفية، الحديد، النحاس والبرونز.

كما احتوت هته القصور على عناصر زخرفية هي: الزخرفة الكتابية، الزخرفة النباتية، الزخرفة الهندسية، الزخرفة المعمارية، الزخرفة التجريدية، الزخرفة الحيوانية، الزخرفة البشرية، الرمزية.

ومن أهم القصور بالجزائر:

- 1- قصر خديوج العمياء ابنة الداوي حسن.
- 2- وقصر عزيزة الذي كان مقر لاستقبال ضيوف الداوي، الأمر الذي جعله يعرف بقصر السفراء.
- 3- قصر حسن باشا والمرجح أنه بني سنة 1791 عرف باسم القصر الشتوي، لأن الحاكم الفرنسي كان يزاول عمله الإداري فيه أثناء فصل الشتاء¹.
- 4- قصر الدالي الذي حوله علي خوجة من الجنينة إلى القصبية.
- 5- قصر الرياس بالاميرالية المسمى بحصن 23 والمتواجد بعين البحر، وهو عبارة عن منازل مرتبطة تحيط بساحة صغيرة بصاباط الحوت.
- 6- قصر باردو الذي يرجع تاريخ بنائه إلى القرن 18 وهو قصر فخم².

¹ محمد الطيب عقاب: قصور مدينة الجزائر، المرجع السابق، ص 35-152.

² عمار عمورة نبيل داوودة: المرجع السابق، ص 234 .

1-2- المساكين والمستشفيات

أ- المساكين:

وضع الفن العمراني العثماني لمستته في بناء البيوت في مدينة الجزائر، فكانت ديارها مبنية فوق بعضها بحيث أن البحر يرى من كافة سطوح الديار، وأسفل الدار مبني بالحجارة والأعلى بالآجر وتطلى الجدران بالجيرة مرة كل سنة على الأقل، ومدينة الجزائر تشمل نحو 5 آلاف دار كلها مبنية على وتيرة واحدة بحيث إن رأيت الواحدة منها أمكنك أن تتصور البقية سواء كانت كبيرة أم صغيرة، وأغلب الديار ليس لها إلا طابق واحد يدعى العلي فباب الدار يفتح على ردهة صغيرة أو كبيرة تدعى السقيفة، وهناك يجلس أصحاب الدار للتحدث مع الجيران، وبعد السقيفة يوجد باب آخر يفتح على وسط الدار الذي يكون مربع الشكل أو مستطيل، وأرضه مرصفة بالحجارة أو الرخام وحول هذا الوسط أربع رواقان، وفي هذه الجهات توجد البيوت وهي مستطيلة وضيقة ولا يدخلها النور إلا من الباب أو النافذتين اللتين إلى جانبه، وفي الطابق الأعلى توجد هذه الرواقات والبيوت التي تدعى الغرف وهي كالبيوت السفلى إلى جانب الدرج الصاعد إلى الطابق الأعلى والسطح التي توجد به مقاصير للخدم¹. (أنظر الملحق رقم 6).

ب- المستشفيات

كانت المستشفيات الإسبانية التي يقوم عليها قساوسة (الثالوث المقدس) و(نظام افتداء الأسرى)، قد وجدت لتعتني بالأرقاء المسيحيين لإبقائهم على عقيدتهم الدينية، ولكن المستشفى كان مفتوحا أيضا لرجال التجارة البحرية المسيحيين وحتى لبعض السكان المسلمين، ويبدو أن المستشفى كان نظاما انموذجيا" لذلك العهد. وبحلول القرن 18م كان هناك حوالي ستة من هذه المستشفيات واقعة في أحياء العبيد أو ما يسمى "البانسيون"،

¹ أحمد توفيق المدني: محمد علي باشا المرجع السابق، ص ص 143-148.

وقد قدمت هذه المستشفيات خدمات للمسيحيين لم يكن في مقدور المسلمين المقيمين في المدينة توفيرها لهم¹.

1-3- المقاهي والأسواق

أ- المقاهي:

كانت المقاهي من وسائل التسلية، يلتقي فيها المواطنون تقدم لهم القهوة في فناجين مصنوعة من الخزف فوق حصون من الصفيح، ويوضع فيها السكر المسحوق ويتناولون معها الدخان ويلعبون الشطرنج ويتبادلون الأخبار، ويعقدون الصفقات التجارية بما في ذلك عقود الزواج².

ويذكر فاغنر Fagnar أنه كان يوجد من المقاهي في الحي العربي وحده حوالي 60 مقهى، يتعلم فيها الأجنبي مختلف المصطلحات الجزائرية، وتتيح له التعرف على الشعب الجزائري، فبالنسبة له لا يوجد مكان يتعلم فيه التعابير الشعبية مثلما يتعلمها في المقاهي.

من هنا يستطيع الإنسان أن يدرس ملامح رواد المقاهي وهم جالسون فوق الأرض. فيرى الحضري الهادئ جالسا قرب التركي في لباسه الفخم، يليه زنجي يرتدي نفس اللباس، وبعده عربي من البادية، وغير بعيد منه قبائلي، ثم مزابي من الصحراء وبسكري³. ويقع أجمل مقهى عربي في شارع البحرية وبه قاعة مقسمة إلى مقصورات تستند على أعمدة وتتسع لعدد كبير من الزوار، ويذكر مقهى كبير بالجزائر يجتمع فيه الناس في الثامنة ليلا، ولا تخلوا المقاهي الكبيرة من الموسيقى في أي يوم من أيام الأسبوع، وتتكون

¹ جون ب وولف: المصدر السابق، ص 153.

² عمار عمورة: الجزائر بوابة التاريخ، المرجع السابق، ص 180.

³ أبو العيد دودو: الجزائر في مؤلفات الرحالة الألمان، 1830-1855، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1989، ص 15-113.

الآلات التي يستعملها الفنانون الجزائريون من الرباب والنايات والقيتارات المختلفة، وتخلو من الموسيقى الصاخبة الخاصة بالأعراس وحفلات شهر رمضان.

فرواد المقاهي يفضلون الاستماع إلى الموسيقى الرتيبة الهادئة التي تدغدغ حواسهم وتناسب الأحلام التي يستسلمون إليها في لذة، وينفرون من الأنغام القوية التي تذكرهم بققعات السلاح.

ويشير شيمبر (Chimbar) إلى كثرة المقاهي ويقول: (كنت أرى المواطنين جالسين فيها من الساعة الثالثة صباحا، ولا تخلو منهم اليوم كله، ويبقون فيها مدة طويلة يدخلون ويشربون القهوة، غير أنني لا اعتبر جلوسهم هذا دليلا على الكسل والخمول وأنكر على كل من يحكم عليهم بذلك معرفته بأوضاع الجزائر)¹. (أنظر الملحق رقم 7)

ب- الأسواق:

توجد في الجزائر بعض الأسواق وهي مركز المدينة وقلبها النابض، وهي عبارة عن دور تشبه الدور العربية ولكل سوق طابقان أو ثلاثة طوابق أو غرف كثيرة. والعادة المتبعة منذ القديم هي أن الأجنبي أو الجزائري أو اليهودي يكتري في السوق محلا أو عدة محلات بمجرد حصوله على رخصة بذلك، ويعرض في أبوابها بضاعته. وكان للجزائر أسواق تحتوي على أكثر من أربعين محلا، أما دكاكين التجار من الأهالي تقع خارج هذه الأسواق وهي صغيرة ليس فيها تنوع في البضائع ولا تلفت الأنظار إلا بشكلها الغريب. هذه الدكاكين عبارة عن ثقب مربعة تغلق في الليل بباب خشبي ولا تستثنى منها إلا الدكاكين الموجودة في شارع الديوان، لأن بضائعها متنوعة ومنظمة بصورة تدل على ذوق أصحابها، وهم في الغالب الكراغلة.

وبضائعها على العموم من الصناعات المطرزة بالذهب، مثل الخفاف والمحافظ وأدوات الزينة الخاصة بالأسلحة وغيرها. أما بقية البضائع فتكون في أغلب الأحيان من

¹ أبو العيد دودو، المرجع السابق، ص ص 15-113.

الروائح والعطور المستخرجة من الورد والياسمين، ومن الصناعات القطنية المحلية، التي تدل على ما بذل في نسجها من جهد، وكثير من الأشياء المصنوعة من خيوط الصبر مثل أكياس الصيد، وحقائب السيدات وأحذية الأطفال وغيرها. وأصحاب هذه الدكاكين من الكراغلة والحضر الأثرياء في أغلب الأحيان ويقومون بشراء هذه المصنوعات من الطرازين وبعض الحضريات¹.

وكانت الأسواق على حسب النشاط الحرفي أي أسواق مخصصة ومنها: سوق الدخان، الجمعة، الحدادين الحصارين الحفاوين الحواتين، الخراطين الخصارين، الخياطين الدلالة الذكير السمارين، السمن الصاغة الصباغين العطارين، الغزل الكسكسية، الفكاهين القبائل الكتان الملاحين، اللوح.

فضلا عن هذه الأسواق أقيمت أسواق مصغرة عرفت بالسويقة، وعادة ما تضم نشاطات متنوعة لأن الهدف من إقامتها كان تلبية حاجيات الأهالي دون عناء كبير. وقد لوحظ بهذه الأسواق الذهب المكسيكي، والماس الهندي، وحرير الشرق وأقمشته، إذ كانت السفن ذات الأعلام المختلفة تدخل وتخرج من الجزائر مليئة بالثروات الاحتياطية². (أنظر الملحق رقم 8).

1-4 الحمامات والعيون

أ-الحمامات:

تعتبر الحمامات من الأماكن العامة وتظهر في كل الأحياء الجزائرية، فقد كان لها أغراض اجتماعية هامة زيادة على عملها التنظيمي فقد كان الحمام هو المكان الذي ينتظف الجزائريون فيه دينيا وصحيا، ففيه يلتقي الرجال والنساء الحضر كل في قسمه

¹ عبد الحميد زوزو: نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر المعاصر (1830-1900)، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1984، ص ص93-94.

² عائشة غطاس: الحرف والحرفيون بمدينة الجزائر (1700-1800)، مقارنة اجتماعية اقتصادية، المؤسسة الوطنية للاتصال والنشر والاشهار الجزائر، 2007، ص ص 209-211.

المنفصل أو حجراته وفيه يتفق على الزواج أو بداية مبادرته الأولى، وفيه يتحدث عن مراسيم الدفن، وتحمل الأعمال التجارية إلى مرحلة الاتفاق، وفيه تحكى الحوادث العائلية بين الأصدقاء¹، ومعظم الكتاب المسيحيين يعترفون باهتمام المسلمين بقضية النظافة داخل هذا النظام الممتاز². وقد بلغ عددها في الجزائر أربع وسبعون حمام نذكر على سبيل المثال: حمام حمزة خوجة، حمام باب جديد حمام باب عزون، حمام المالح، حمام سيدي عبد الرحمن، حمام باب الواد حمام جنينة. وبالأخص حمام سيدنا، الذي يقع بالقرب من دار مصطفى باشا في أسفل القصبة، وهو أقدم حمام بالجزائر³.

وكانت بنايات الحمامات واسعة ونظيفة مضاءة من السقف ومجهزة بالماء البارد والساخن، وفيه غرفة كبيرة خارجية يوضع فيها الثياب ومنها حجرة أخرى عريضة قسمت إلى مكعبات تسع كل منها إلى 10 أو 12 شخص، وفي كل مكعب يمر الماء الساخن عبر أنابيب البرونز المقامة على الحيطان فيستحم الشخص بمساعدة اثنان من الهزيميتسز⁴ وبعدها يعود المستحم إلى غرفة الملابس يتناول كوبا من الشارببات بعد أن يبخ عليه ماء الزهر قبل لبس الثياب⁵. (أنظر الملحق رقم 9)

وقد كانت حمامات النساء تشبه حمامات الرجال، لكن الإجراءات كانت أكثر طراوة والزبائن كان أمامهن وقت أطول ووقت أقل للتجمع مع الأصدقاء، فبعد أن تتجز السيدات مختلف مراحل البخار يقوم الخدم بغسلهن من الرأس إلى القدم بماء الزهر ويبخون عليها بالمسك وعطور أخرى، وبعدها ينتظرون في غرفة الملابس ليس فقط لشرب الشارببات بل

¹ وليم سبنسر: الجزائر في عهد رياس البحر، تقديم وتعريب الدكتور عبد القادر زبادية الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1980، ص 95.

² جون ب وولف: المصدر السابق، ص 152.

³ عمار عمورة: الجزائر بوابة التاريخ، المرجع السابق، ص 70.

⁴ هي الخدام الأقوياء ينظر: وليم سبنسر: الجزائر في عهد رياس البحر، ص 97.

⁵ وليم سبنسر: المصدر السابق، ص ص 95-96.

للفاكهة والجوز وحلويات أخرى تشمل الحلوى المفضلة للترك الحلقوم ونوع من حلوى أصابع العروسة، كما تقوم المؤسسة بتهيئة جو موسيقي وتحضير فتيات للرقص¹.

ب- العيون

كانت مدينة الجزائر تحتوي على الكثير من العيون العمومية تجلب مياهها العذباء من عين تنبع بالقرب من برج **مولاي حسن** (ابن خير الدين) أو عين الحامة، وتصل إلى المدينة عن طريق قنوات تزود مرافقها الصناعية والتجارية وأحياءها السكانية المختلفة بصفة جيدة ودون انقطاع، وكانت هذه العيون في نفس الوقت محل لقاءات ونقط التجمع في الأحياء الشعبية، وقد بلغ عددها سنة 1830م نحو 150 عين وكان تشييدها يعتبر من أعمال البر والإحسان يوكل حراستها وصيانتها إلى خوجة العيون الذي كان يطبق تشريعا صارما للحفاظ عليها من التبذير، وهذه العيون المقامة على الجدار محاطة بأقواس ومزخرفة في كثير من الأحيان بالمرمر والخزف².

ومن بين هاته العيون التي ما زالت تذكر عين مسجد علي بتشين التي يعود تاريخها إلى 1623م، وعين سيدي محمد الشريف، وعين مسجد سيدي عبد الله، وعين القصر التي كانت موجودة في الأصل على مدخل قصر الداوي داخل القصبة، وهي مصنوعة من الرخام محاطة بأربعة أعمدة تعلوها قبة، وعين البحرية الواقعة بالمرسى القديم التي شيدت من طرف علي باشا 1764م والمقامة كغيرها من العيون العامة على جدارية محاطة بأقواس ومزخرفة في كثير من الأحيان بالمرمر والخزف ذات الألوان وهناك نقش فوق هذه العيون يقال (أن علي باشا بعد تأمل وإمعان في هذه الدنيا الفانية فكر في أن يعمل من أجل آخرته بأن يسخر ثرواته لعمل الخير وأن يشيد البناء، وهكذا أقام هذه العيون التي تمنح في نفس الوقت الحياة والطهارة) . (أنظر الملحق رقم 10).

¹ وليم سبنسر : المصدر السابق، ص ص 95-96.

² عمار عمورة: الجزائر بوابة التاريخ، المرجع السابق، ص 70.

كما توجد عيون خاصة عددها قليل مقارنة بالعيون العمومية، كانت تزين مساكن كل سكان الجزائر الميسورين، وتكتسي أشكالاً زخرفية جميلة مصنوعة بالرخام وأحواضها الخزفية ذات الفوارات، ولكن على خلاف العيون العمومية لم يكن يدخل الماء إلى المنزل إلا إذا دفع صاحبه مبلغاً مرتفعاً إضافة إلى هذه العيون كانت توجد عيون خارج أسوار المدينة نذكر منها:¹

1- عين بولوغين نقش فوقها من فجر ماء جازاه الله ألف مرة على كل قطرة ماء).
2- عين الحامة التي بناها البابا علي وكانت موجودة آنذاك خارج المدينة، ونقش على المرمر فوق العين العبارات التالية: يا رب إنه لا حدود إذن لجلال قدرك لا كلما أمعنا في حفر الأرض لعيون بدل الماء العكر الذي يجري بفضل رحمتك موجاً صافياً خالصاً للشعب والإيمان، اللهم إسق ماء الكوثر عبدك المطيع رحمة منك سنة 1173 هـ / 1759-1760 م.

3- عيون بئر مراد راييس: أقيمت سنة 1793 م وتحمل إلى يومنا على المرمر نقش (هذه عين الحياة إقفر أيها الأجنبي الفقير إشرب من مائها وترحم على حسان باشا).
4 _ عيون بئر خادم نقش فوقها العبارات التالية : (يقدم جزيل الشكر لحسان باشا الذي خلق من العدم هذه العين حتى يشرب الإنسان من مائها ومن الحياة معا).

بالإضافة إلى هذه المرافق شيد الأتراك العديد من الحصون والأبراج لحماية مدينة الجزائر من العدوان الخارجي نذكر منها الإمبراطور وبرج تامنفوست وحصن برج الكيفان، كما احتوت مدينة الجزائر على عدد من المرافق والخانات قدر عددها ب 45 فندق، كان يقيم بها بعض الأتراك المتزوجين والمتقاعدين ممن لا مال لهم وكذلك الوافدين من المناطق الداخلية، كما اتخذها عناصر الجيش الانكشاري مقراً لهم ويقيم بها أيضاً الحمالين، وتختلف أسعار الغرف في الفندق الواحد وخصصت بعض الفنادق كفندق

¹ عمار عمورة: الجزائر بوابة التاريخ، المرجع السابق ، ص ص 71-235.

الميكاييين الإقامة الحجيج الذين يتوافدون إلى مدينة الجزائر أثناء رحلتهم إلى البقاع المقدسة، ونذكر من بين هذه الفنادق فندق بني مسلمان الذي اشتمل على سبعة غرف وستة بيوت وفندق كجاوة بستة عشر غرفة.¹

2- العادات والتقاليد ووضعية المرأة:

تميز المجتمع أواخر الفترة العثمانية بعادات وتقاليد مارسها أهل المدن وأخرى مارسها أهل الريف، إذ كانت عادات أهل الريف متنوعة تقوم على توجيهات أصحاب الطرق الصوفية في أغلب الأحيان، بينما كانت عادات أهل المدينة موحدة تستمد أصولها من التاريخ الإسلامي والحضارة العربية بصفة عامة.²

2-1- الأعياد الدينية:

كانت الأعياد الدينية تدعى ببرامات من الكلمة التركية الخاصة بالعطل الدينية³، فكان منها الاحتفال بليلة القدر والمولد النبوي الشريف من إيقاد شموع وإنشاء التواشيح والتزين والتطيب وغيرها، واحتفالات رمضان وعيدي الفطر والأضحى.

أ_ المولد النبوي الشريف

تعتبر احتفالات المولد النبوي الشريف من أطول الاحتفالات فهي تستمر حوالي 15 يوما، تبدأ المراسيم كل يوم بعد صلاة المغرب إلى حين وقت صلاة العشاء ليعبر الناس خلالها عن محبتهم للرسول الكريم عليه الصلاة والسلام كل بطريقته الخاصة، فالنسوة يجتمعن في البيوت لترديد الأغاني والمدائح الدينية المشيدة بخصال الرسول صلى الله عليه وسلم، والرجال في المساجد يقرؤون القصائد والمدائح الدينية التي تتعرض لحياة

¹ عائشة غطاس: الحرف والحرفيون بمدينة الجزائر، المرجع السابق، ص 218.

² أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج 1، المرجع السابق، ص 160.

³ وليم سبنسر: الجزائر في عهد رياس البحر، المصدر السابق، ص 100.

الرسول صلى الله عليه وسلم وتتناول خصاله بالمدح والثناء¹، وفي اليوم الذي يصادف المولد تضاء الشموع وتعزف الموسيقى وتعد النساء أطعمة خاصة.

كما ينظم الشعراء بهذه المناسبة الكبيرة إشعارا وموشحات نبوية يمدحون فيها الرسول صلى الله عليه وسلم، ويلتقي العلماء والفضلاء والحكام في المساجد يتلون فيها صحيح البخاري طوال الليل، ويصف لنا فندلين شلوصر (Fandalin Chlosser) أجواء الاحتفال بهذه المناسبة قائلا: (المولد النبوي عيد كبير بالنسبة للأطفال، فالمدارس كلها مزينة بالأعلام والأزهار ويقف التلاميذ أمامها وبأيديهم مسدسات يسددونها نحو كل مار، فيدفع لهم النقود هدية وإذا كان المار يهوديا أو يهودية فعليه أن ينزع حذاءه ويغني، ويعترض الأطفال طريق المارة ويرشون وجوههم بالماء المعطر وينتظرون منهم أيضا أن يقدموا لهم هدية)²، وتقام وليمة ثانية بعد مضي أسبوع من ولادة الرسول صلى الله عليه وسلم.

ب_شهر رمضان

عندما يحل شهر رمضان يستقبله الناس بالفرحة والسرور، وقبل الشهر الفضيل تبدأ النسوة بالاستعداد فيطحن القمح والشعير ويفتل الكسكس ويصنع السمن من لبن الشاه وتذبح الأغنام والدواجن كل حسب طاقته³، فهو شهر يختلف عن سائر الشهور تسود فيه الرحمة والبهجة⁴، ويتحدث فاغمر (Fagnare) عن بعض التقاليد المتبعة في شهر رمضان فيقول أن الإعلان عنه يتم بإطلاق مائة طلقة من مدفع كبير أقيم في الميناء⁵.

¹ أحمد مريوش وآخرون: الحياة الثقافية في الجزائر خلال العهد العثماني، منشورات المركز الوطني للدراسة والبحث والحركة الوطنية وثورة 1954، طبعة خاصة بوزارة المجاهدين الجزائر، 2007، ص 225.

² فندلين شلوصر : المصدر السابق، ص 86.

³ أحمد مريوش وآخرون: المرجع السابق، ص 226.

⁴ عمار عمورة: الجزائر بوابة التاريخ المرجع السابق، ص 138.

⁵ أبو العيد دودو : المرجع السابق، ص 115.

وبعد هذه الطلقات توقد مصابيح كبيرة فوق منارات المساجد، ويقف المؤذن بثيابه الجميلة وسط أضواء المصابيح ويرفع العلم الأبيض، ثم يدعو المؤمنين إلى الصلاة. وتحدث **فندلين شلوصر (Fandalin Chlosser)** عن يوم الصيام فقال: (في الساعة السادسة مساءً يعلن عن الإفطار بطلقة مدفع، ويستطيع المرء أن يرى بعد الخامسة رجل أمامه نار مشتعلة وآخر يمسك قطعة خبز، وترى بعضهم واقفين في الشارع ينتظرون طلقة المدفع والآذان)¹.

وأهم ظاهرة اجتماعية في هذا الشهر هي أن المدينة تشهد خلافا لسائر الشهور خروج الناس، فقد جرت العادة أن لا يمشي أحد ليلاً أما في رمضان فالجميع يخرجون ويسهرون حتى النساء².

ويحرص المسلمون فيما يذكر **فاغندر (Fagnere)** على سماع الموسيقى طيلة شهر الصيام ويتسلون بمشاهدة الرقصات والعروض المسرحية³، والهزليات المتنوعة في أغلب المقاهي العربية التي تشارك فيها شخصيات من العباد والحيوانات، وثمة محل آخر يحضى بعدد كبير من الزوار في ليالي رمضان هو المسرح الشعبي أو القراقوز⁴.

وخلال رمضان يزداد إقبال الرجال على المساجد، فكانوا يستمعون إلى شرح صحيح البخاري بعد صلاة التراويح، ومن بعد صلاة الصبح إلى وقت الضحى ومن الظهر إلى المغرب، وختامه يكون في السادس والعشرين من شهر رمضان. وحينما يأتي وقت السحور كان يطوف البراح في الشوارع وينادي بأعلى صوته معلناً بدخول وقت السحور.

¹ فندلين شلوصر: المصدر السابق، ص 86.

² أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج 1، المرجع السابق، ص 160.

³ هو المسرح الذي اختص بالظواهر الدرامية الشعبية، وهو شكل من الأشكال التعبيرية الشعبية القريبة من المسرح وتعني بالتركية العين السوداء التي ظهرت أثناء الحكم التركي بالجزائر فانتقلت هذه اللعبة من تركيا إلى الشام ومصر ووصلت إلى شمال إفريقيا. (ينظر: ويليام سبنسر : المرجع السابق، ص 240).

⁴ أبو العيد دودو: المرجع السابق، ص 117.

أما ليلة القدر فالناس يحيونها بالصلاة وقراءة القرآن في المسجد، إذ يعتمد إمام المسجد إلى تجزئة أحزاب المصحف الشريف إلى عدد الرجال الحافظين للقرآن الكريم ويحدد نصيب كل شخص بخمسة أحزاب، فيبدأ الإمام بالقراءة من أول سورة البقرة حتى تلك الرسل، ويكمل الثاني من حزب تلك الرسل حتى حزب المحصنات، وهكذا إلى أن يختم المصحف مع طلوع الفجر¹.

ج - عيد الفطر:

ويسمى سكر بيرامي أي عيد السكر، وسمي هكذا بسبب تبادل الهدايا فيه والقطع الصغيرة من الحلويات المصنوعة بالسكر وذلك بمناسبة نهاية رمضان شهر الصيام². وهو عيد البهجة والمغفرة يستسلم فيه المسلم إلى مسراته، فيستيقظ الناس في الصباح على أنغام الموسيقى الصاخبة التي يعزفها السود وهذه الموسيقى الزنجية من العادات القديمة المتبعة في الأعياد. وتكون النساء والفتيات محجبات إلا أن عددن في الشوارع والميادين العامة لا يقل عن عدد الرجال وهن يكتفين بالنظر والتسلية. وفي باب الواد ميدان فسيح يقوم فيه تركي عجوز بإدارة عجلة كبيرة وفوقها عدد من الأطفال يمرحون ويضحكون، أما أبناء الأغنياء فيجلسون في عربات يقودها الزنوج أو البسكريون³. ويرتدي الأهالي في أيام العيد الثلاثة أجمل ما لديهم من ألبسة وخاصة الأطفال الذين يرتدون الثياب المطرزة بالذهب والفضة والسراويل المصنوعة من الصوف والقطن وهم يفرحون ويمرحون مما يجعل مناظرهم في منتهى الروعة⁴.

¹ أحمد مريوش وآخرون: المرجع السابق، ص 225.

² وليم سبنسر : المصدر السابق، ص 100.

³ أبو العيد دودو: المرجع السابق، ص 118.

⁴ عمار عمورة: الجزائر بوابة التاريخ، المرجع السابق، ص 138.

د - عيد الأضحى:

ويسمى قربان بيرامي أو بيوك بيرامي ومعناه الحرفي عيد المسلم الكبير للتضحية أي عيد الكبير¹، ويعد مناسبة جلييلة تعلنها طلقات المدافع المدوية²، تقام فيه ألعاب بهلوانية تشبه المصارعة يحضرها كبار رجال الدولة³ في المكان المعد لها، وما يميزه أيضا جلسات الحضرة الخاصة لمدح الرسول عليه الصلاة والسلام والتي تقام عقب صلاة العيد⁴.

هـ - يوم الجمعة:

يعتبر يوم الجمعة من أعياد المسلمين تغلق فيه المدينة أبوابها عند الصلاة، كما تغلق جميع الدكاكين نوافذها ومعظم التجار لا يعودون لفتح الدكاكين بعد الصلاة، بل يذهبون في نزعات خاصة مع أهلهم أو يخرجون إلى بساتينهم القريبة أو يزورون بعضهم البعض. أما النساء فقد كن يتوجهن منذ الصباح الباكر إلى المقابر لزيارة موتاهم⁵.

2-2- الأعياد الاجتماعية:

أ - حفلة الولادة:

كانت للولادة عادات وتقاليد وطقوس للاحتفال بها، فما إن تضع المرأة مولودها حتى تسرع العائلة لذبح دجاجة إذا المولود ذكر وديك إذا كان المولود أنثى وتقوم القابلة بدق مسمار في الموضع الذي ولد فيه الطفل بهدف إبعاد الأذى والشرور عنه، وبعد قطعها

¹ وليم سينسر : المصدر السابق، ص 100.

² عمار عمورة: الجزائر بوابة التاريخ المرجع السابق، ص 138.

³ كان في قسنطينة ينضم الباي ليلة العيد حفلة عشاء تعزف خلالها الموسيقى وفي يوم العيد يستطيع كل إنسان أن يدخل القصر ليتنمنا لسيده عيد سعيد وفي التاسعة صباحا يركب الباي جواد ويترك المدينة برفقته مماليكه وأعيان المدينة والفلاحين ودقات الطبول تتعالى ويحيط بالموكب عدد كبير من الأهالي شيوخا وشباب راكبين وراجلين والخيول مزينة بسجادات جميلة وتطلق سبع طلقات نارية لتحية الباي عند دخوله المدينة وخروجه ويبدأ سباق الخيل الذي تصاحبه أنغام الموسيقى ويمر كل قائد مع فرقته أمام الباي ويطلقون النار كلهم وبعد ذلك يوزع الباي الهدايا على خدامه وحراسه ويقدم الجوائز الأحسن الفرسان (ينظر: أحمد مريوش وآخرون: الحياة الثقافية في الجزائر، المرجع السابق، ص 225).

⁴ أحمد مريوش وآخرون: المرجع السابق، ص 225.

⁵ أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج 1، المرجع السابق، ص 161.

لصورة الطفل تدلك جسده بالتراب والسمن المستخلص من لبن الشاه ثم تنظفه بالماء وتلفه في قطعة من الصوف ولا يرتدي أي نوع من الثياب طيلة الأسبوع الأول، وبعد مضي الأسبوع يؤتى بشخص يشترط أن يكون اسمه إما أحمد أو محمد ليؤذن في أذن الطفل اليمني ويلفظ الإقامة في الأذن اليسرى، ويلبس الطفل لأول مرة منذ ولادته ملابس جديدة ويمنح له إسما، وفي العادة المولود الأول يسمى على اسم جده لأبيه إذا كان ذكرا وعلى اسم جدتها لأبيها إذا كانت بنت، ويصحب كل ذلك احتفال بسيط يحضره أقارب الطفل والجيران، ويوزع فيه الفول والخبز وتذبح العقيقة إذا كان أهل الطفل قادرين على ذلك.¹

ب- حفلة الختان:

تبدأ حفلة الختان بالأغاني والرقصات وتقديم الهدايا التي يحضرها المدعوون للصبي المراد ختته، والتي تكون عبارة عن مال يتكون من قطع نقدية متبوعة بزغردة النساء.²

وكان يختن الأطفال في سن الرابعة ويدعى الرجل الذي يقوم بهذه العملية "البشار"، وما هو برجل دين وأقصى ما يتسلمه من الأثرياء هدية لا تزيد على ثمانية "بوجو"، أما الفقراء فإنه يختن أولادهم مجانا . ويتم ختان أبناء البادية على يد المرابط، فالختان بالنسبة العرب الريف حفلة دينية أكثر منها دنيوية، أما الحضر فإنهم على العكس من ذلك يطعمون ويكررون نفس الحفلات التي تقام بمناسبة الأعراس.³ ويصف الرحالة مالتسان (Maltissan) حفلة ختان متحدثا : (وبعد أن استمر تقديم الهدايا وزغردة النساء فترة من الزمن بدأت عملية الختان نفسها، وكان الصبي البالغ من العمر 6 سنوات يرتعد ويصرخ بصورة فضيعة، واستعمل الحلاق الذي قام بالعملية موس الحلاقة، وكان

¹ أحمد مريوش وآخرون: المرجع السابق، ص 227.

² هاينريش فون مالتسان: ثلاث سنوات في شمال افريقيا، ترجمة أبو العيد دودو ، ج 2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر، 1979، ص 62.

³ أبو العيد دودو : المرجع السابق، ص 122.

هذا المنظر رهيبا مقرفا وصرخ الطفل بشكل خاص وبكى بكاء شديدا عندما صب العرق فوق الجرح لإيقاف الدم¹.

ج- حفلة الزواج:

يتحدث أبو العيد دودو الطريقة التي يتم بها عقود الزواج فيذكر أن الشباب الحضريين يصلون إلى سن البلوغ في الثالثة أو الرابعة عشر، ويتزوج أبناء الأثرياء عادة في الثامنة عشر ويتزوج غيرهم حين يصبح في إمكانهم أن يعيلوا امرأة². ويذكر أبو القاسم سعد الله بعد الاطلاع على دفتر محكمة المدينة أن هناك بعض حالات الزواج لدى شبان ما يزالون عند البلوغ، ولذلك نجد العبارات التالية مرافقة لأسمائهم (تزوج الولد الصغير فلانة)³.

وإذا أراد شاب أن يتزوج فلا يستطيع أبدا أن يقيم علاقة شخصية مع فتاة لأنه لا يوجد وسيلة لدخول بيت الأسرة، وعندما يسمع أن لهذا الرجل أو ذاك فتاة في سن الزواج⁴ ورغب في مصاهرة أهلها فانه يبحث عن خاطبة لها علاقة بأهلها يتاح لها الدخول إلى بيتهم⁵. فكان بذلك التوسط ظاهرة شائعة في خصوص العرف الزواجي بمدينة الجزائر، وفتيات الجزائر كن يبلغن سن النضج عند الثاني أو الثالث عشر، فكانت المتوسطات يقمن بعمل ذي قيمة⁶ ويتمتعن في الجزائر بالحرية التي يتمتع بها الرجال، فلا أحد يهتم بما يفعلن. وهكذا يختار الشاب الذي يرغب في الزواج من هؤلاء الخاطبات ويتخذ منها رسولا لحبه، ويقدم لها هدية متواضعة ويعدها بأكثر من ذلك إن هي قدمت له معلومات

¹ هاينريش فون مالتسان: المصدر السابق، ص 62.

² أبو العيد دودو: المرجع السابق، ص 122.

³ أبو القاسم سعد الله: دفتر محكمة المدينة أواخر العهد العثماني (1821-1839)، مجلة الثقافة، السنة الرابعة عشر، العدد 81، (شعبان رمضان 1404هـ / ماي يوليو 1984)، مجلة تصدرها وزارة الثقافة والسياحة، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 1984، ص 143.

⁴ فندلين شلوصر: المصدر السابق، ص 86.

⁵ أبو العيد دودو: المرجع السابق، ص 122.

⁶ وليم سبنسر: المصدر السابق، ص 97.

صادقة عن جمال الفتاة ولطفها، وإذا كان الشاب غنيا وذا سمعة طيبة فإنها تسرع في الحال إلى والدي الفتاة وتبوح لهما بالسر الذي عهد إليها به ذلك الشاب، فإذا ارتضياه صهرا فإنهما يقدمان لها بعض الهدايا لكي تطري جمال ابنتهما. على أية حال تتم خطبة الفتاة الشكلية على يد الخاطبة نفسها ويجتمع الوالدان ويتفقان على الصداق الذي يجب أن يدفعه الشاب للفتاة، فإذا تم ذلك ذهبا إلى القاضي فيعد هذا عقد الزواج الشكلي ويحدد يوم العرس، ويطلب القاضي ليتم الزواج على بركة الله¹، وتشتري العروس بالثمن لباس وتبتاع ما تحتاجه من أثاث وأدوات التي تحملها إلى العريس يوم الزواج².

وقد لاحظ باناتي (Panati) تحضيرات زواج مدني لدى زوجين من البرجوازية العليا في مدينة الجزائر، والذي استمر أكثر من سبعة أيام يتجول فيها الزوج قبل الحفل في نواحي المدينة على أصوات الطبل والمزمار، وفي يوم الزواج يقوم بجولة أخرى مرتديا جلبابا أحمر وبجانبه سيف رفيع، كما يوجد خمار على وجهه للحيلولة دون تأثير الشياطين، وخلال ثلاثة أيام التي يجري فيها الإحتفال يؤخذ العريس إلى الحمام حتى اليوم الذي يتم فيه الزواج، وفي ذلك اليوم يجمع الأصدقاء والأقارب فيقوم الزوج بالصلاة بمحضرهم³، ثم يعودون بمجرد غروب الشمس تصاحبهم الموسيقى والفوانيس الكبيرة إلى منزل العروس، فتتبعهم هذه في لباس فخم برداء حريري أبيض إلى بيت العريس، أما العرائس من الطبقة الراقية فيقطعن المسافة على ظهور البغال فيما يشبه القفص يحجبهن عن عيون الرجال⁴.

وعندما تصل إلى بيت العريس تؤخذ بعناية شديدة كي لا تلمس العرى الذي يعتبر فالأ سيئا⁵، وتقاد إلى غرفة مضاءة تتناول فيها طعامها مع النساء ترقص وتتسلى، بينما

¹ أبو العيد دودو: المرجع السابق، ص 122.

² فندلين شلوصر: المصدر السابق، ص 87.

³ وليم سبنسر : المصدر السابق، ص 98.

⁴ أبو العيد دودو: المرجع السابق، ص 120.

⁵ وليم سبنسر : المصدر السابق، ص 98.

يجتمع الرجال بالبهو يحتفلون، ويحيط ببيوت المتزوجين الجدد جمع غفير من الناس يدخلون ويشربون القهوة ثم تقدم قصعة كبيرة من الطعام، فيلتف حولها الضيوف كلهم ويأكلون بملاعق خشبية.

وبعد الطعام تقدم الأكلة الرئيسية المتمثلة في خروف مشوي الذي يقطع ويوزع على الحاضرين، ثم تقدم الفواكه المختلفة خاصة البطيخ والتمر والبرتقال، وفي النهاية تقدم القهوة ويستمر تقديمها حتى الصباح وذلك أثناء مشاهدة العروض الفنية، ويتسلى النساء في الطابق الأعلى بالرقص وكثيرا ما سمع زغرداتهن. وتقاد العروس إلى غرفتها فتتزع عنها ثياب العرس، وتقدم لها صديقاتها بعض الإرشادات تتعلق بسلوكها في وضعها الجديد، ويرافق الأقرباء العريس إلى الباب¹، فيدخل إلى منزل عروسه فيجدها جالسة على سرير مزينة يغطي وجهها منديل من الحرير²، وبعد لحظات تتردد زغردة النساء من جديد في جوقة لا تنتهي³.

وتعزف الموسيقى في البهو وتتصاعد الهتافات في الدار وفي الشارع، وهذا الصراخ الحاد يعلن أن الزواج قد تم كلية⁴.

2-3 نمط الحياة ومعتقدات عامة

أ- التأثيث:

اشتمل البيت الجزائري على عدد من المفروشات والأثاث، فقد استعمل ستار الباب الذي كان في الممرات الداخلية عوضا عن الأبواب، وكذلك بين الغرف وتتركب عادة من

¹ أبو العيد دودو: المرجع السابق، ص 121.

² عميرايو احميدة : الجزائر في أدبيات الرحلة والأسر خلال العهد العثماني (مذكرات تيدنا نموذجا)، دار الهدى الجزائر، ص 90.

³ والعربي الريفى أكثر حرية في اختيار زوجته من الحضري فهم يتزاورون في خيامهم ويتعرفون على نسائهم فإذا أعجب رجل بفتاة فإنه يحاول أن يعقد صفقة مع أبيها فإن اتفق معهم اشترى للعروس لباس (ينظر: فندلين شلوصر: قسنطينة أيام أحمد باي المرجع السابق ، ص ص 92، 93) .

⁴ أبو العيد دودو: المرجع السابق، ص 121.

ثلاثة أشرطة أفقية، أما الأثاث فهو متكون من طاولات قصيرة ومخدات وصناديق مطقمة بأصل من الحجارة أو العاج، ثم أضيف إليها المرايا وقطع قطيفة متداية¹.

ويقول اندري برنيات(Andri Bernyat) أن في البيت الجزائري عدد كبير من الصناديق والزرابي والمساند البديعة والمناضد²، وقد عوض هذا كله شيء من الجمال المهني، وذلك عن طريق الجمع العشوائي بهذا الشكل، وكانت أرضية المنازل تغطي بزرابي الصلاة الأناضولية أو الحنايل التركية الجميلة التي كانت تحمل من غرفة إلى أخرى حسب ما تقتضيه الحاجة، بالإضافة إلى هذا كانت هناك الصفائح العريضة من النحاس الأحمر المطروق القائمة على قواعد خشبية، والتي تدعى "الصيني" وتتركش وفقا للطابع التركي. وقد أضافت لمسات تركية إلى صيغة تزيين البيت العثماني، ومثل ذلك يقال بالنسبة إلى إبريق القهوة (قهو بييري)³.

ب_الطعام:

يتناول الجزائريون الفطور على الساعة السادسة صباحا والغداء على الساعة التاسعة والعشاء على الساعة السادسة، وعند الأغنياء وأصحاب الحرف يقع الإعتناء بالعشاء أكثر من أوقات الطعام الأخرى حيث لا يطبخ اللحم غالبا للغداء، وأطول أوقات الطعام لا يتجاوز أربع ساعات⁴، أما غداؤهم فيتكون من الخبز والدجاج واللحم والسمك والخضروات والفواكه والحليب والزبدة⁵ وزيت الزيتون⁶.

¹ وليم سينسر : المصدر السابق، ص 92.

² أندري بريان: المصدر السابق، ص 207.

³ وليم سينسر : المصدر السابق، ص 93.

⁴ أحمد توفيق المدني: محمد عثمان باشا داي الجزائر، المرجع السابق، ص 170.

⁵ عمار عمورة: الجزائر بوابة التاريخ، المرجع السابق، ص 182.

⁶ كان غذاء البربر خبز الشعير وزيت الزيتون والتين المجفف والبلوط والقبائل عادة لا يأكلون الأغنام ولا الدواجن ولا يذبحونها إلا عندما يأتيهم ضيوف أما غذاء سكان السهول فهو خبز من القمح والشعير أو من الشعير وحده، والزيت نادر عنده لذلك تحضر المأكولات بالزبدة التي تملح للاحتفاظ بها طويلا ولا يأكلون اللحم إلا في بعض أيام الأسبوع. (ينظر: حمدان خوجة ، المرأة ، المصدر السابق ، ص ص 25، 26).

الكسكس: هو من أهم الأطباق التي اشتهر بها سكان بلاد المغرب عامة والجزائر خاصة يتم تجهيزه من دقيق القمح أو الشعير المطحون وتختلف طريقة اعداده من منطقة إلى أخرى، كما يتحكم في ذلك أيضا المستوى الاجتماعي للأسرة فقد يكون مع الخضار واللحم عند فئات و قد يكون مع الخضار فقط أو مع الحليب فقط عند فئات أخرى، ارتبط الكسكس في تناوله باللبن ومشتقاته كالدهان، ويذكر مختار حساني أن الكسكس تأتي في مقدمة المأكولات بالنسبة للفئة الفقيرة التي كانت تستعمله يوميا كوجبة للغداء والعشاء¹: **البيلاف** (بيلو أو بيلو) وهو طبق أناضولي ثابت كان شائعا كثيرا في مدينة الجزائر، كما كان سكان المدينة يقبلون كثيرا على طبق الدولما معناها الحرفي (المحشوة) من مختلف الأنواع مثل : **سوبان دولماسي** وهو عبارة عن بصل مملوء بلحم الخروف المرحي والروز و**يابراك دولماسي** وهو لحم مغلف بأوراق العنب وما إلى ذلك، وقد كان **الكباب** (كابوبس) من لحم العجول والخرفان، وكذلك **الكفتة** وهي وجبة كراكب من اللحم تطبخ بطرق متنوعة، وكان هناك أنواع من الكباب تدعى **مكرون**².

وكان طعام الصائم كسكسي بالزيت ويضاف إليه اللحم المقلي والفواكه³.

ج- اللباس:

كان تنسيق اللباس من أقدم الأركان التي قامت عليه الدولة العثمانية، وهو بذلك يميز الشعوب عن بعضها البعض وكانت نوعية الملابس تختلف باختلاف الطبقات وثروة الأفراد وفصول السنة. وعموما كان اللباس الجزائري يتكون من عدة قطع بعضها بأكمام والبعض الآخر بدون أكمام مفتوح في الصدر ومزين بأزرار وزخارف وبعد ذلك تأتي سراويل فضفاضة تنزل حتى الساق، وكثيرا ما يلبس الرجل حزاما يلفه عدة مرات حول وسطه يضع في طياته ساعته ومحفظة نقوده، ولباس الرأس هو العمامة والرجل "البلغة"،

¹ مختار حساني: تاريخ الدولة الزيانية (الأحوال الاجتماعية)، ج3، دار الحضارة، الجزائر، 2009، ص113.

² وليم سبنسر: المصدر السابق، ص ص 91-92.

³ أبو العيد دودو: المرجع السابق، ص 116.

أما الجوارب فلا يلبسها إلا الشيوخ في حالة البرد فقط. وملابس الأتراك الكرغليين عادة مزينة بالقصب وبحواشي الذهب أو الفضة أو الحرير طبقا لغرور الشخص ونزواته وشكل العمامة، وثناياها ونوع المادة التي صنعت منها، وهي المقياس الذي يحكم عليه الناس بقيمة الرجل الذي يلبسها.

وفوق جميع الملابس يلبس الرجل برنسا ذا قلمون يحمله على كتفه ويغطي به كل جسمه أثناء البرد، وينسج البرنوس من صوف ناعمة بيضاء تمزج أحيانا بالحرير وزخاريفه وحواشيه أيضا من الحرير في بعض الأحيان، والبرنوس الذي يلبس في فصل الشتاء له نفس الشكل، ولكنه ينسج من خيوط أمتن بحيث يقي من المطر ويكون لونه أسود وجميع الجزائريين الذين تسمح لهم حالتهم المالية يلبسون الملابس الداخلية. (أنظر الملحق رقم 1 و2).

أما لباس النساء فإنه يتكون من قميص صغير ومن سراويل تنزل حتى العقب وثوب من الحرير غني بالتطريز بالدنتيال ويلحق بشريط من الوراء، وأخيرا تلبس المرأة الحذاء ولكن بدون جوارب، أما لباس الرأس فهو القومي مخروطي الشكل وفوقه يلقي حجاب شفاف كثيف أو خفيف التطريز. وإذا خرجت المرأة خارج منزلها ترتدي حايك أبيض اللون يغطي ثوبها وجسمها كله من الرأس إلى العقب، أما الفتاة غير متزوجة فتعرف حالتها عندما تخرج من بيتها بسراويلها المتعددة الألوان، وهذا اللباس يغطيه حايك من النوع الذي تقتضيه الظروف¹. (أنظر الملحق رقم 3).

وكان لباس اليهودي مقصور على اللون الأسود والأبيض، وهما اللونان المسموح بهما لهم في ألبستهم الخارجية وكان ذلك علامة تميزهم.

أما لباس التجار فكان أكثر أناقة، فقد اشتهروا بلبس الأريحيات المزركشة بكعب حديدي مرتفع كبوس أحمر عريض تحيط به قطعة من القطن الرفيع في هيئة الشاش².

¹ عمار عمورة: الجزائر بوابة التاريخ، المرجع السابق، ص 182.

² وليم سبنسر: المصدر السابق، ص 89.

أما لباس الداي فلم يكن مختلفا عن لباس العامة، فكان يرتدي قميصا فوقه صدرتان حمراء، وينتعل بشمقا من الجلد الأصفر فوق خف من ذلك اليوم يدعى ترليك، ولم يكن في ثيابه شيء من الذهب أو الفضة، وفي فصل الشتاء كان يضع جوارب من القطن ترتفع إلى ومعطف قصير يدعى جابدولي وسروال كبير في الشتاء ومن قماش الكتان في الصيف ويضع برنسا أبيضاً وعلى رأسه عمامة مستديرة من الحرير الرقيق الأبيض فوق شاشية نصف الساق¹.

وكان للعيد صبغة خاصة في اللباس فالداي مثلاً كان يرتدي الخلعة التي كان يرسلها السلطان الأعظم، وهي عبارة عن قفطان مفتوح اليدين مصنوع من قماش قطني وفي مقدمته قطعة قماش من الحرير الأصفر على شكل لهيب نار². بينما يرتدي الأهالي في الأيام الثلاثة للعيد أجمل ما لديهم من ألبسة، وخاصة الأطفال الذين يرتدون الثياب المطرزة بالذهب والفضة والسراويل المصنوعة من الصوف والقطن، مما يجعل منظرهم في منتهى الروعة³.

د - الجنائز:

كانت إجراءات تحضير الميت تبدأ بغسل الجثة بالماء الساخن والصابون ثم يلبسها ويحملها لتدفن. وإذا كانت الوفاة بيوم الجمعة فإنه يبقى عليها أثناء وقت الصلاة بالمسجد وحينئذ يرافق المصلين الجثة إلى المقبرة يرتلون سورا من القرآن ويمشون بسرعة بمجرد الوصول إلى المكان يترحم عليها هناك ثم تودع في الأرض، ويوضع حجر عند الرأس وأخرى عند القدم وكل منهما تكون منقوشة بآيات قرآنية فيعلم حجر القبور للرجال بخرقعة

¹ يختلف اللباس من منطقة إلى أخرى فكان البربر وسكان الجبال يرتدون قماش من الصوف وأغنيائهم يضعون لباسا آخر فوقهم يسمى البرنس والنساء يتدثرن في حائك أما الأطفال فتعطى لهم الألبسة في فصل الشتاء. (ينظر: حمدان خوجة، المرأة، المصدر السابق، ص ص 24، 23).

² أحمد توفيق المدني: محمد عثمان باشا المرجع السابق، ص 164.

³ أبو العيد دودو: المرجع السابق، ص 108.

وحجر قبور النساء بباقات من الزهور¹.

وإذا مات رجل خارج المدينة فليس لأهله أن يدخلوه إليها وإذا مات رئيس في البحر أو في المرسى خارج الأسوار فجنثته تنتقل إلى المقبرة عن طريق البحر².

ويتحدث تيدنا (Tidna) عن حضوره إحدى الجنائز قائلاً : (كنت أحضر أحيانا موت بعض العرب فبعد موت الميت مباشرة يجتمع الأهل والأصدقاء ويصدرون صراخا يمزق القلب، وبعد ذلك يغسل الميت بماء معطر مبتدئين بالرجلين ولم يكن يسمح بلمس المكان الذي تم غسله وبعد الانتهاء من الغسل يكفن الميت في القماش جديد، ويذهب الجميع إلى الأكل وبعد الانتهاء من ذلك يحمل النعش إلى القبر، وهو عبارة عن حفرة متوسطة العمق رشت بالماء ليوضع بها الجثمان ويغطى بالحجارة بكل عناية، وترتب بحيث لا تسقط ذرة من التراب عليها وقبل غلق الحفرة توضع تحت رأس المتوفي رسالة تحمل توصية أو شفاة إلى محمد نبيهم كل ذلك كان ينفذ بسرعة ومن دون انقطاع³.

أما عن عادات زيارة المقابر فكانت فترة الصباح مخصصة للنساء اللواتي كان مطلوب منهن أن يقضين قسما من الثمانية أيام الموالية حول القبر يغنين ويذكرن الخصال الحسنة للميت، وبعد ذلك كان عليهن أن يذهبن في كل يوم جمعة كواجب يوم الجمعة الإسلامي. وأفراد البيت الذكور كان عليهم إلا يحلقوا لمدة ثلاثة أيام بعد الجنازة ولا يسمح بإيقاد النار داخل بيوتهم ولا بأي شيء يغلي وتلبس النساء السواد خلال تلك الفترة ويتحللن من تلك العادة ما عدا أرملة الرجل للمكانة الاجتماعية، فإنها تخلع خواتمها وتضع قطعة قماش أبيض وتلبس ثيابا قديمة عن قصد وكان الأرامل يعتبرن في فترة حزن لمدة أربعة أشهر وعشرة أيام⁴.

¹ ولیم سبنسر : المصدر السابق، ص 106.

² أحمد توفيق المدني: محمد عثمان باشا داي الجزائر، المرجع السابق، ص 172.

³ عميرايو احميدة : المرجع السابق، ص 91.

⁴ ولیم سبنسر: المصدر السابق، ص 106.

وأول ما يشغل به الأغنياء وكبار الدولة هو تهيئة القبور التي تأويهم بعد الموت، فالرجل منهم يشتري أرضا خارج باب الواد أو باب عزون ويبني حولها سورا ويغرس بها بعض الأشجار والزهور، وفي وسطها يهيئ قبره وإن كان الماء قريبا فهو يجريه إلى عين عند باب الضريح ليستقي منه أبناء السبيل. وإذا مات الرجل عن حريم وبنات فإن النسوة يرتدين اللباس الذي يخرجن به للطريق ويمكنن بسقيفة الدار ثلاثة أيام لتلقي التعزية من القريبات والصديقات¹.

هـ - العادات العامة

كان من عادات الجزائريين الاستيقاظ باكرا والنوم باكرا على الساعة التاسعة ليلا²، وعند غروب الشمس تغلق أبواب المدينة ولا تفتح إلا عند طلوع الصبح، وفي هذه الأوقات لا يسمح للسكان التجول في الشوارع أو الخروج من منازلهم بعد صلاة العشاء إلا عند الضرورة القسوى ورفقة مصباح مشتعل، وكل شخص لا يمثل لهذه القواعد يعتقل ويعاقب³ ومن العادات الشائعة في مجتمع أرياف الجزائر عدم ترك البنات تواصل دراستها بعد المرحلة الابتدائية⁴، وتزويجها في سن مبكر ابتداء من الثانية عشر وأحيانا قبل ذلك، وعدم إشراكها في الإرث إذا ما تزوجت إلا في ظروف خاصة⁵.

¹ أحمد توفيق المدني: محمد عثمان باشا داي الجزائر، المرجع السابق، ص 172.

² Jean michel ventur de paradis:alger ou xuiii, siete (1788-1790).memoir. notes et observations d un diplomate espion. presontation et notes par abd erahmane rebabi.edetion grand alger livres.alger 2006.p170.

³ عمار عمورة: الجزائر بوابة التاريخ، المرجع السابق، ص 181.

⁴ من عادات الأرياف المبالغة في احترام المرأة لدرجة الاحتشام من ذكر اسمها وسيطرة الأب على أبنائه وإبقائهم تحت حمايته وكفالتهم حتى بعد زواجهم وأنجابهم للأطفال مما يجعل الأسرة كثيرة العدد، وعندما تزف المرأة إلى منزل زوجها تلازمه ما عدا عند زيارة أهلها مرة في العام أو العامين، ويفضل انجاب الأطفال على البنات ويحتفل بهم دونهن. (ينظر: يحيى بوعزيز، الحالة الاقتصادية والاجتماعية للمجتمع الريفي المرجع السابق، ص 181).

⁵ يحيى بوعزيز: الحالة الاقتصادية والاجتماعية للمجتمع الريفي بالشرق الجزائري خلال القرن 19م، مجلة الثقافة، السنة الرابعة عشر، العدد 80 جمادى الثانية رجب 1403هـ / مارس أفريل (1984م)، مجلة تصدرها وزارة الثقافة والسياحة، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 1984م، ص 181.

أما المرأة فلم تكن تخالط الرجال ولا تخرج من المنزل إلا عند الضرورة لزيارة العائلات أو المقبرة أو التبرك بأضرحة الأولياء الصالحين¹، وعندما تقع أفراح الزواج أو عندما تكون هناك أعياد عائلية فإن السكان يستلفون من بعضهم حلي وجواهر ثمينة يفوق سعرها في بعض الأحيان عشرة أو خمسة عشر فرنك، وكل شيء في هته الظروف يركز على الثقة ولا يشترط أي دليل لإثبات الدائنة، وقد جرت العادة كذلك أن بعض الأسر الغنية تشتري جواهر وحلي فاخرة تعار للأيتام عند زواجهم وللفقراء الذين لا يستطيعون الحصول عليها².

وكانت النساء يزرن القرب بانتظام كي يقدمن القرابين ويوقدن المصابيح الزيتية ويضعن الزهور لتدعيم التدخل الديني الذي يطلبه بغية إبعاد المصاعب الاجتماعية والعائلية³.

كما كان يعتقد الناس في كثير من المناطق أن المصابين بالحمى قد ركبهم الشيطان ولذلك لا يصبرون على وجودهم بينهم ولا ينامون معهم في غرفة واحدة، بل يضعونهم في مكان خاص ويحملون إليهم الطعام دون أن يلامسهم إلى أن يشفوا من مرضهم ويتخلّى عنهم الشيطان⁴.

وبالنسبة للجنود الأتراك كان لهم بعض العادات، فالتدين الشديد للأتراك وخرافية النخبة العسكرية التي لا تعرف الكتابة قد أدت إلى تعاظم مثل تلك العادات الدينية المأثورة مثل إعطاء الفرد بظهره إلى الشمس حينما يتوقف في الشارع، وكونه جالسا لتناول وجبة بقدمه الأيسر تحت الأيمن وأصابع أقدامه باتجاه الشرق وما إلى ذلك، وقد كان الاعتقاد في الأرواح الشريرة وتدخل قوات المرابطين قويا⁵.

¹ عمار عمورة: الجزائر بوابة التاريخ، المرجع السابق، ص 107.

² حمدان بن عثمان خوجة: المصدر السابق، ص 64.

³ وليم سبنسر: المصدر السابق، ص 105.

⁴ فندلين شلوصر: المصدر السابق، ص 104.

⁵ وليم سبنسر: المصدر السابق، ص 105.

2-4- وضعية المرأة ودورها

اختلفت آراء المؤلفين حول مكانة المرأة في المجتمع الجزائري، فمنهم من أثنى دورها وأهميتها ومنهم من قلل من هذا الدور، ومن أهم الخصائص المميزة للمرأة أنها سيدة ممتازة لكنها محجوبة عن الشارع ومحرومة من التعليم والشغل، فالنساء في المدن لا يجدن حرجا من تكليف الرجل بالمهمات خارج البيت وهن حسبما يقول شالر (Chaler) : (يتحررن من أزواجهن ولم يكن مستعبدات أو محل أفكار مظلمة ...) ¹، ومن عادات سيدات الجزائر ذهابهن مرة إلى الحمام في الأسبوع. ويمثل هذا الحدث ليس فقط تنظيفا ولكن نوعا من إظهار الأزياء إلى جانب تبادل الأخبار العائلية، وفي هذه المناسبات تعرض الثروة العائلية. فتلبس برجوازيات مدينة الجزائر أشرطة ثقيلة الوزن من الذهب حول الوسط والعنق وتتدلى من أذانهن أقراط في شكل هلال غالبا كبيرة وثقيلة وكانت تنقب أذن المرأة في عدة أماكن وهناك الأحجار الكريمة كالمرجان.

وكان اهتمام المرأة بشكلها كبيرا فكان الشعر هو ظاهرة الجمال الأساسية ويقدر جماله أكثر لما يطول حتى القدمين. وكان بناء السرمة وهي لباس الرأس المميز الجميل في الجزائر يستغرق الكثير من الساعات، فعندما ينتهي تسريح الشعر ومشطه وتدليله وأصباغ رائحة زيت السمك عليه أو ماء الزهر يعاد تجميعه في ذوائبه ويربط بقطعة مذهبة أو فضية تترك للتدلي على الظهر من مؤخرة الرأس ².

وهناك شريط آخر غني بالزركشة بالخيوط المعدنية اللامعة يربط حول الأول ليحتوي على كل الشعر في شكل مخطوط، وهناك قطعة شفافة من الحرير المبهرج الرقيق قد زينت بذيل من الأشرطة الملونة التي تكمل هذا التكوين.

لقد كانت المرأة الجزائرية شديدة الرغبة في الروائح والأطرزة المزركشة والتركيبات العطرية، فكانت الحواجب يتم تدميسها بشدة بالكحل في حين أن نهايات الأظافر

¹ أندري بريان: المصدر السابق، ص 213.

² وليم سنيسر : المصدر السابق، ص ص 89-91.

والأكفاف والأصابع وبواطن الأقدام كان يتم تحضيرها بالحناء، كما كانت الحواجب تقوس في شكل هلال ويمتد طرف كل قوس ليلحق بسمر الأنف، حيث يرتسم بشكل صغير كنقطة أو تزين فوق المنخر، وتحاط العيون بعض الأحيان بصبغ أسود. وهناك علامة أخرى للجمال يثني عليها بشدة بين نساء مدينة الجزائر وهي عيون الغزال (أي الاتساع والصفاء واللون الأعطر)، فإذا كانت عيون سيدة لا تقي الشروط يوضع سائل من الجوز على الجوانب بواسطة مردود مشط كما تصبغ به الخلايا السفلى للأشعار بواسطة مردود فضي، وتستكمل عملية التجميل بوضع أحمر الشفاه¹.

وخلافا لما كان يشاع من أن المجتمع الجزائري مجتمع الرجل فان المرأة قد لعبت فيه دورا أساسيا في الميدان الاجتماعي والثقافي²، فالمرأة الريفية كانت تقوم بأعمال كثيرة في الوقت الذي ينعم فيه الرجل بالراحة لذلك لا تستطيع امرأة واحدة القيام بها. ففي الفجر تحلب الأبقار والأغنام ثم تأخذ واحدة في مخض الحليب، بينما تنظم الأخرى الخيمة والباقيات يسقن الماشية إلى الرعيان، وبعد ذلك تجلس امرأتان لتسجأ ألبسة للرجل ولنفسها وللأطفال، وهناك من يهيأ الفطور للأسرة وفي المساء تجلب الحطب وتقيد الماشية وتربطها وتحلبها بينما تغزل أخرى الصوف³.

أما المرأة المدنية فكانت تتاجر - وكانت على خلاف الريفية - لا تخرج إلا محجبة وذلك لا يقلل من دورها الاجتماعي، فبيتها كان نظيفا يضرب به المثل حتى أن المرء ينتقل فيه حافيا من غرفة إلى أخرى فلا يمس قدميه أي وسخ. وكانت تعتني بتربية الأطفال حتى كان الطفل الحضري مضرب المثل أيضا في النظافة والذوق والجمال. أما أوقات فراغها فتقضيها في الحمام أو زيارة الأقارب والجيران⁴.

¹ وليم سبنسر: المصدر السابق، ص ص 89-90.

² أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج 1، المرجع السابق، ص 162.

³ فندلين شلوصر: المصدر السابق، ص 93.

⁴ أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج 1، المرجع السابق، ص 163.

وإذا صدقنا رواية الأسير الاسباني هايديو (Haydou) فإن المرأة في مجتمع مدينة الجزائر تعاطت نشاطات حرفية خارج بيتها، حيث اشتغلت في ورشات لصناعة الأنسجة. وقد كشفت دفاتر المخلفات أو التراكات العائدة إلى أواخر القرن 18م عن أن المرأة تعاطت نشاطات حرفية اختلفت عن تلك التي تعاطتها في الثمانينات من القرن 16م. إذ أن الحرف التي قامت بها النساء كانت تتدرج كلها ضمن حرف الخدمات، كالبيع خارج البيت أو الدلالة وإقامة الأفراح من أعراس وغيرها وهي مهنة "المسمعة" و"المداحة" والتمريض والتوليد، والاشتغال في الحمامات سواء من حيث تسييرها وهي مهنة معلمة الحمام أو تقديم الخدمات داخلها أي "مهنة الطبابة والتجميل" أي مهنة المشاطة، لكن نشاط المرأة لم يقتصر على المهن النسائية، بل أن بعضهن احترفن عالم الرجولة كصناعة الشمع.

ومن المهن التي تعاطتها المرأة في مدينة الجزائر تحضير الخبز¹ والتطريز من عمل الإبرة، والتي كانت تمثل النشاطات الأساسية لنساء مدينة الجزائر. وقد كانت المطرزات قد اقتصرن في القطع الخاصة بالنوافذ وألبسة الرأس والمحارم اليدوية، وكذلك تطريز القفطانات والأدوات الأخرى من الألبسة الخاصة بالرجال والنساء، وهذه الأعمال تشغل من وقت عملهن الكثير من الساعات.

وعموما فإن المرأة الجزائرية مثلت بالمعنى التام للكلمة الجانب المنزلي للوجود الاجتماعي للإسلام. فكن عبارة عن قعيدات الكانون اللواتي تدافع عنهن الأسلحة والسفن الجزائرية²، وليس صحيحا أن المرأة لم تكن تشترك في السياسة العامة للبلاد حقا أنها لم تكن عضوة في الديوان ولا موظفة سامية في إدارات الدولة، لكنها كثيرا ما تدخلت في توجيه القرارات والتأثير على أزواجهن في اتخاذ مواقف معينة.

¹ عائشة غطاس: الحرف والحرفيون بمدينة الجزائر (1700-1800)، المرجع السابق، ص 254.

² وليم سبنسر: المصدر السابق، ص ص 89-91-92.

وكذلك أدت المرأة خدمات دينية واجتماعية وخيرية هامة، فقد وجدناها توقف الأوقاف على الفقراء والمساكين وتساهم في تحبيس الكتب ونحوها على المساجد¹.

3- الوضع الصحي والكوارث الطبيعية وأثرها على المجتمع:

3-1- الوضع الصحي

عاشت الجزائر في أغلب فتراتنا في رخاء، إلا أنها عرفت بالمقابل عدة أمراض خطيرة وفتاكة، كالطاعون والكوليرا والجدي والسل التي أدت إلى وفاة العديد من السكان.² وفي المرحلة الأخيرة من حياة الدولة الجزائرية قبل الاحتلال أصبحت الحالة الصحية والمعاشية تزداد سوء وتدهورا باستمرار، مما أثر سلبا على نمو السكان وترك آثارا سيئة على وضعهم الاجتماعي، ويعود سبب الحالة الصحية إلى انتقال العدوى وانتشار الأمراض من الأقطار المجاورة، وذلك لصلة الجزائر بعالم البحر المتوسط وانفتاحها على أقاليم السودان وعلاقتها بالبلاد الأوربية وارتباطها بالمشرق العربي، فمن هذه البلاد لاسيما مصر، الحجاز، اسطنبول، فانطلقت مختلف الأمراض كالكوليرا والتيفوس والجدي والطاعون والرمل والسل وكانت أهم الطرق لانتقالها هي توافد التجارة والحجاج والطلبة من أقطار الشرق الأوسط إلى الموانئ الجزائرية.

وقد ساعد على توطن هذه الأمراض الموسمية والأوبئة المعدية انتشار المستنقعات بالسهول الساحلية، وعدم التزام السكان بالقواعد الصحية التي كانت تتميز بها الحضارة الإسلامية في المغرب العربي، والتي لم يعد يعرف السكان منها سوى معلومات بسيطة وتجارب شخصية³.

¹ أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي ، ج 1 ، المرجع السابق، ص 163.

² عمار عمورة: الجزائر بوابة التاريخ، المرجع السابق، ص 74.

³ ناصر الدين سعيدوني: أبحاث ودراسات في تاريخ الجزائر (الفترة الحديثة والمعاصرة)، ج 2، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1988، ص 124.

أ- الحمى:

يذهب البعض إلى أن معظم سكان الجزائر كانوا عرضة للحمى بأنواعها المختلفة : الحمى المتلثية والحمى الباردة، كما نتج عن الظروف الصحية التي كان يعيشها السكان مثل الفقر والمجاعات المهلكة ظهور الحمى التيفوسية، التي تعتبر بنت الفاقة وسوء التغذية، وقد أدى جهل أغلبية السكان بالوسائل الوقائية وانعدام الرعاية الصحية إلى انتشار داء العينين وأمراض جلدية مختلفة¹.

ب- الجدري

كان الجدري يأتي مرة كل أربع سنوات ويفتك بالسكان ومن ذلك في عام 1804 م أهلك ما يزيد عن ألفي شخص².

ج- الطاعون

كان الطاعون من أخطر الأمراض التي عرفتها الجزائر، وكان يظهر حسب المصادر مرة كل خمس عشرة سنة أو خمس وعشرين سنة، فهو جرثومة معدية سريعة الفتك بالإنسان يصيب في أغلب الأحيان أنواعا عديدة من الحيوانات القارضة وخاصة الفئران، وكان هذا الداء ينتقل بفعل حركة السكان فهو ينتقل من بلاد الرافدين وشبه الجزيرة العربية ومصر إلى الجزائر.

وتجدر الإشارة إلى أن معظم الأوبئة التي تعرضت لها الجزائر خلال هذه الفترة كانت عن طريق البحر، أي بواسطة سفن الحجاج وغيرها، وهناك من يقول أن هذا الداء

¹ كان الأهالي القاطنون بجوار المستنقعات الأكثر تعرضا لمرض الملاريا أو حمى المستنقعات وأهم المناطق التي عانت منها: سهل متيجة وما يشابهها وعنابة والقاله وذلك نظرا لطبيعتها البيئية. (ينظر: عائشة غطاس الوضع الصحي للجزائر خلال العهد العثماني، المرجع السابق، ص 126).

² عائشة غطاس: الوضع الصحي للجزائر خلال العهد العثماني، مجلة الثقافة تصدر كل شهرين السنة الثالثة عشر، العدد 76 رمضان شوال 1403 هـ / يوليو أغسطس 1983) تصدرها وزارة الثقافة المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 1983، ص 126.

كان مستوطنا في البلاد وأن جراثيم المغرب أكثر خطورة من جراثيم المشرق¹. ونذكر السنوات التي عرفت انتشار الوباء في أواخر العهد العثماني : 1784م - 1785م - 1786م - 1793م - 1794م - 1797م - 1798م - 1799م - 1804م إلى 1808م و 1816م إلى 1822م، وتفيدنا التقارير أنه في شهر مارس من سنة 1785م قدر عدد الوفيات من جراء مرض الوباء ما بين 5 إلى 6 وفيات في اليوم الواحد، وذلك ما بين 10 و 18 من هذا الشهر ثم تزايدت خطورة الوباء عندما ارتفع عدد الإصابات القاتلة بعد أن عم الطاعون المدينة وانتشر في كل أحيائها منذ نهاية شهر ماي وحده 103 إصابة قاتلة رغم أن الوباء قد خفض وطأته في شهر جويلية عندما بدأ عدد الإصابات يتناقص، وقد عاد إلى الظهور مرة أخرى وتزايدت خطورته في شهر أوت خاصة عندما ارتفع عدد الوفيات الناتجة عن هذا الوباء إلى 100 وفاة في اليوم الواحد، وظلت الحالة هذه حتى أواسط شهر أكتوبر من نفس السنة عندما بدأت حدته تتناقص تدريجيا².

كما أدى وباء 1786م . 1787م³ إلى هلاك 16721 نسمة في مدينة الجزائر منهم 14334 من المسلمين والباقي من الأسرى واليهود، فتناقص عدد سكان مدينة الجزائر إلى 50000 نسمة⁴.

ويذكر الحاج احمد الشريف الزهار في مذكراته عن وباء 1791م : (جاء للجزائر وباء حتى وصل عدد الأموات أحيانا 500 جنازة كل يوم وما يسمى الوباء الكبير، وقيل

¹ ناصر الدين سعيدوني: دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر (الفترة الحديثة والمعاصر)، المرجع السابق، ص 126.

² ناصر الدين سعيدوني: دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر (العهد العثماني)، المرجع السابق، ص 210.

³ كان من نتائج وباء 1787م أن اضطر الباي محمد الكبير إلى مغادرة وهران والإقامة بسهل ملاتة حتى نهاية الوباء، كما تسبب في موت ثلثي سكان مدينة عنابة. (ينظر: ناصر الدين سعيدوني : دراسات وأبحاث المرجع السابق، ص 127).

⁴ ناصر الدين سعيدوني: دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر (الفترة الحديثة والمعاصر)، المرجع السابق، ص 127 .

أنه أتى من بر الترك في مركب مع رجل يدعى ابن سماية، وطال الوباء بالجزائر مدة عشر سنوات إلى 1211 في عهد محمد باشا¹.

ووباء عامي 1827م، 1828م² الذي قضى في مدينة الجزائر على أكثر من 14000 نسمة³، وهو آخر وباء عرفته الجزائر في هذه الفترة المدروسة، والذي يعد أكبر كارثة عرفتها البلاد⁴.

وقد أثر وباء الطاعون على الأوضاع الصحية للجزائر العثمانية، وارتبط بالعوامل الأخرى التي أثرت على الوضع الصحي للسكان مثل الاضطرابات الجوية والتذبذبات المناخية وفترات الجفاف والفيضانات، بالإضافة إلى اجتياح الجراد وما نتج عنه من الزلزال والحرائق، وما ترتب عنها من تخريب وتدمير⁵.

ومما زاد في سوء الأحوال الصحية أن الحكام كانوا لا يهتمون بأمور الصحة ولم يولوها العناية الفائقة واللائقة بها، فالحديث عن الرعاية الطبية يكاد يكون ضرباً من الخيال فذهب بعضهم إلى القول بأن مدينة الجزائر ليس بها أي طبيب، فالنظام الحاكم قد أهمل العناية الصحية الخاصة بالأهالي، فلم ينشروا مؤسسات صحية لهذا الغرض بينما بذل الحكام ما بوسعهم لجلب الأطباء لأنفسهم.

فهم لم يتخذوا أي إجراءات وقائية ضد الأمراض. وقد اختلف حول مسألة الحجز الصحي، فمنهم من أكد أن النظام العثماني لم يفرض نظام الحجز الصحي على السفن

¹ أحمد توفيق المدني: مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار (نقيب أشرف الجزائر 1168-1246هـ / 1754-1830م)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1974، ص 51.

² أدى إلى هلاك ثلثي سكان مدينة عنابة التي لم يعد يتجاوز سكانها بسبب هذا الوباء 5000 نسمة كما تضررت به أغلب الجهات الجبلية والصحراوية. (ينظر : ناصر الدين سعيدوني: دراسات وأبحاث المرجع السابق، ص 127.

³ ناصر الدين سعيدوني : دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر الفترة الحديثة والمعاصرة، المرجع السابق، ص 127.

⁴ عائشة غطاس: الوضع الصحي للجزائر خلال العهد العثماني، المرجع السابق، ص 126.

⁵ ناصر الدين سعيدوني: ورقات جزائرية، المرجع السابق، ص 210.

والأشخاص، في حين ابن حمادوش أشار إلى وجوده، وقد أعاب حمدان خوجة على المسلمين تعصبهم والمقصود هنا عدم استعمال الحجز الصحي¹.

د- الطب

كان الطب في الجزائر أواخر العهد العثماني مهملًا ويكاد يكون غير معروف، فيذكر الرحالة الألماني شيمبر (Chimber) الذي زار الجزائر حيث يقول : فلا يوجد في مدينة الجزائر على كبرها سوى طبيب عربي واحد وهو صيدلي في الوقت نفسه، ولهذا فقد كان الحكام الأتراك يعتمدون في الغالب على الأطباء الأروبيين مثل الطبيب الألماني بفايفر (Bfayfar)، الذي أصبح في 1825م الطبيب الوحيد الخاص بالقصر يعالج القادة والجنود الأتراك ومن مؤلفي الطب وقتئذ محمد بن رجب الجزائري وعبد الرزاق بن حمادوش².

أما أغلبية السكان فكانوا يعتمدون على طب الأعشاب في المداوات سواء الأمراض الباطنية أو الجروح، ولهم تجارب ناجحة وإيجابية في كثير من الأحوال. ومن بين الأدوية الشعبية الشائعة المرهم الذي يصنعونه من عصارة شجرة الصنوبر والقطران والبصل وزيت الزيتون والرماد والعرعار والزعتر والعسل والكمون وعروق الطيب وورق الصفصاف، وقشور الرمان والصنوبر والجوز والكروية وأوراق نبات التاسلعة الشديد المرارة، ونبات أما قرامان والرحمة وغيرها. ولهم تجارب مهمة جدا في جبر كسر العظام ومعالجة أمراض الصدر والأمراض الباطنية والكي بالنار³.

¹ عائشة غطاس: الوضع الصحي للجزائر خلال العهد العثماني، المرجع السابق، ص ص 126-127-128.

² عمار عمورة: الجزائر بوابة التاريخ، المرجع السابق، ص 144.

³ يحي بوعزيز : الحالة الاقتصادية والاجتماعية لمجتمع الريف بالشرق الجزائري خلال القرن 19م، المرجع السابق، ص 188 .

أما الجراحة فكانت جد بدائية تستعمل فيها المخدرات النباتية القوية، ويستعملون الكي في عملية الجراحة ويقوم بها حلاقون دون دراستهم لهذا الاختصاص، والأمراض العادية في الجزائر آنذاك مرض الحمى العفنة، الكبد، القرحة، الالتهابات المختلفة، فقر الدم، داء المفاصل، ومرض الزهري والبعض يعتمد على المرابطين الذين يداوونهم بالجن والأرواح والاحجية والدعاء والتمايم والبخور ونحو ذلك من الشعوذة والبعض الآخر يعتمد على الحمامات.¹

هـ - المستشفيات:

أما عن المستشفيات فقد كانت منعدمة أيضا إلا أن الزوايا كانت تقوم مقام هذه المرافق الصحية، فتستقبل الحجاج والمسافرين والفقراء وتقدم لهم الإسعافات، وكانت بعض الملاجئ من بينهما ملجأ باب عزون وكان يعنى بالأمراض العقلية، وملجأ يأوي العجزة من الأتراك والانكشاريين² مثل مصحة زنقة الهواء.

بالإضافة إلى مستشفيات رجال الدين المسيحيين التي كانت تنفق عليها الدول الأوروبية ومن أهمها المستشفى الذي أسسه الراهب المعروف بيقواريدو عام 1662م بالقرب من باب عزون ومستشفى لازاريسست الذي خصص له الملك الفرنسي لويس 13 بعض الإعانات المالية.³

و - المجاعات :

لقد مس الجزائر العثمانية سلسلة من المجاعات تسبب فيها الجفاف والجراد، ومات جراءها العديد من السكان ومن أكبرها مجاعة 1752 م التي أدت إلى هلاك 1700 مواطن⁴ في مدينة الجزائر، والتي استمرت ثلاثين يوما . كما نذكر مجاعة

¹ عمار عمورة: الجزائر بوابة التاريخ، المرجع السابق، ص 144.

² عائشة غطاس : الوضع الصحي للجزائر خلال العهد العثماني، المرجع السابق، ص 128.

³ ناصر الدين سعيدوني: دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر الفترة الحديثة والمعاصرة)، المرجع السابق، ص 126.

⁴ ناصر الدين سعيدوني: الشيخ المهدي بوعبدلي، المرجع السابق، ص 74.

1778م، حيث خيم القحط في ربوع الجزائر وكامل الشمال الإفريقي من الإسكندرية إلى المغرب الأقصى، يومئذ سعر الصاع الجزائري وهو ما يزن 34 كيلو تقريبا من البر أربعة بوجه¹ أي 80 و74 فرنك فمات الناس جوعاً²، ويقول **الحاج احمد الشريف الزهار** في مذكراته واصفا أحوال البلاد في هذا الضرب: (وقع الغلاء في القمح لعدة سنوات، وأعطى الله القحط وهو الجوع في الناس حتى صارت قيمة الصاع الجزائري أربع بجة والناس يموتون جوعا، في الأسواق قالوا أن الرجل كان يأكل مقدار ما يأكل الرجلان ولا يشبع وبعد الأكل يموت وهو يقول جعت" أعاذنا الله من هذا الداء لأن ليس له دواء).

ويؤكد على هول هذه المجاعة بالإستناد إلى شهادة حاضري الموقف قائلاً: (سمعت من بعض من أثق بهم من الشيوخ الذين حضروا المجاعة قالوا : أن القمح كان قليلا . لا أتذكر هل قالوا أن ذلك من قلة المطر أو من كثرة المطر وترادفت السنين، وأما اللحم والسمن والرز فكان خيرا كثيرا وفيهما الرفق بالأسعار. وقد حضرت أنا سنوات الغلاء فوصل القمح عندنا في الجزائر سنة 1219 هـ، وكنت صغيرا دون البلوغ بخمس عشر وهي خمسة دور للصاع الجزائري³ فلم يعده الناس غلاء ولم يمت أحد وذلك لكثرة وجود الدراهم بين أيدي الناس)⁴.

هذا وقد تميز الربع الأول من القرن 19م بتكاثر المجاعات التي تميزت بها سنوات 1800م . 1806م . 1807م . 1816م . 1819م واتصفت مجاعة 1800م خاصة بإنعدام المؤن الأمر الذي اضطر معه **الداي مصطفى باشا** إلى استيراد الحبوب من موانئ البحر المتوسط⁵، وقد شرح **حمدان خوجة** هذه المجاعة في كتابه المرأة بقوله: (في

¹ البجه = 3.13 فرنك ذهب. (ينظر: أحمد توفيق المدني، عثمان باشا المرجع السابق، ص 85).

² عبد الرحمان الجيلالي: المرجع السابق، ص 261.

³ الصاع الجزائري مقداره 34 كيلو تقريبا. (ينظر: أحمد توفيق المدني، عثمان باشا، المرجع السابق، ص 86).

⁴ احمد توفيق المدني: مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار، المرجع السابق، ص 31.

⁵ ناصر الدين سعيدوني: ورقات جزائرية، المرجع السابق، ص 564.

سنة 1800م أصيبت الجزائر بمجاعة كبرى ووقعت الحاجة إلى الأقوات، فأمر الداي بتموين البلاد بالذهاب إلى موانئ البحر الأسود لشراء القمح، وقد بيع بثمانية وعشرين فرنك للصاع الواحد، وعلى الرغم من ذلك كان لابد من تنصيب الجنود عند باب كل مخزن¹.

ويحكى أنه في سنة 1804م - 1805م، وقعت مجاعة شديدة وقحط وهول دام الحال كذلك مدة ثلاث سنين متوالية، وأصيب الزرع بأكله وأعدم حصاده في جهات كثيرة²، فأشرف الضعفاء على الهلاك فتشتتوا عن منازلهم وتفرقوا بسبب الهول الواقع في وطنهم مع الشر والمصائب التي حلت به من قبل من يبس الزرع³، وعدم الحرث ونزول القحط والفتن إلى غير ذلك حتى صاروا يقتاتون الدم والميتة وغير ذلك مما لا يباح إقتيانه⁴.

أما مجاعة 1816م التي تميزت بخطورتها، والتي إشتدت وطأتها إثر انقطاع الأمطار وزحف أسراب الجراد، فاخثقت الحشائش وزالت المزروعات من الحقول مما أضر بالسكان وزاد الحالة الصحية سوءا.

وكذا مجاعة 1819م، حيث سارع فيها الباي حسين باشا إلى شراء 50 ألف صاع من الحبوب من موانئ البحر الأسود لتغطية استهلاك مدينة الجزائر⁵.

¹ حمدان بن عثمان خوجة: المصدر السابق، ص 122.

² صالح العنتري: مجاعات قسنطينة (دخائر المغرب العربي)، تحقيق وتقديم رايح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1394هـ / 1974م، ص ص 27-28.

³ كما أضرت بأهل قسنطينة ووطنها خاصة ناحية القبلية وأعراشها كالحراكنية والنمامشة وأولاد يحيى والخرارب. (ينظر: صالح العنتري: مجاعات قسنطينة ، ص ص 27، 28).

⁴ جمال قنان: نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر الحديث، (1500-1830م) ، طبعة خاصة بوزارة المجاهدين، دار هومة، الجزائر، ص 343.

⁵ ناصر الدين سعيدوني: وثائق جزائرية، المرجع السابق، ص 565.

3-2- الكوارث الطبيعية وأثرها على المجتمع

أ- الزلازل:

عرفت البلاد الجزائرية أثناء العهد العثماني سلسلة من الهزات الأرضية العنيفة، التي تسببت في تخريب بعض المدن، ونتجت عنها في كثير من الأحيان خسائر في الأرواح والممتلكات. أما حديثنا عن مدينة الجزائر في أواخر العهد العثماني، نذكر زلزال 1755م حدث زلزال قوي شمل البحر المتوسط الغربي وعرف لدى المؤرخين بزلزال لشبونة لوقوع محوره بالقرب منها، فلم يبق منزل في مدينة الجزائر لم يتأثر بهذا الزلزال، فقد عانى السكان من انقطاع الماء وتهدم القنوات وظهور الحرائق ببعض الأحيان وشيوع أعمال النهب والفوضى لمدة شهرين استمر فيها تكرر الهزات الأرضية¹، ولم يطل الأمر حتى حدث زلزال آخر في شهر جوان 1760م في البلدة تضررت منه منازل الجزائر العاصمة، فالتجأ السكان إلى الحدائق والبساتين هرباً من تهدم المنازل عليهم².

كما حدث في 2 ماي 1825م على الساعة التاسعة والنصف صباحاً، هزة أرضية عنيفة في مدينة الجزائر هدمت بعض المنازل، تلتها هزات أخرى في ظرف 48 ساعة³، أدى إلى هلاك ما لا يقل عن 7000 قتيل⁴.

بعدها حدثت هزات أرضية بمدينة الجزائر عام 1830م، وهذا ما ترك نتائج سلبية على الوضع الديمغرافي والحالة الصحية للجزائر أثناء العهد العثماني، كما أثرت في

¹ لقد عرفت السنوات الأخيرة من القرن 18م والأعوام الأولى من القرن 19م بتعدد الهزات كان أشدها زلزال وهران 1790، وقد كان هذا الزلزال من الشدة حيث قضى على 1000 شخص ماتوا تحت الانقراض وأدى إلى انقطاع المياه والعيون والينابيع مثل منبع رأس العين الغزيرة التي جفت بسبب الهزات الأرضية (ينظر: ناصر الدين سعيدوني، ورقات جزائرية، المرجع السابق، ص 563).

² ناصر الدين سعيدوني: ورقات جزائرية، المرجع السابق، ص 562-563.

³ ناصر الدين سعيدوني: مهدي بوعبدلي: المرجع السابق، ص 74.

⁴ ناصر الدين سعيدوني: دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر الفترة الحديثة والمعاصرة، المرجع السابق، ص 127.

نفوس الأهالي وأدت بهم إلى النقمة من الحكام والثورة عليهم محملين إياهم سبب البلاء والمأساة¹.

ب- الفيضانات والحرائق

تعتبر من الآفات الطبيعية التي أضرت بالجزائر في العهد العثماني، تسببت في حدوث مجاعات واختفاء الحبوب وانقطاع المؤن وهلاك كثير من السكان، ومن الفيضانات التي عرفت الجزائر في الفترة المدروسة تلك التي تميزت بفداحة خطرها 1755م . 1757.1791م . 1812م . 1816م، نتيجة لهذا تضررت أوضاع الجزائر الاقتصادية، ومما زاد الطين بلة سوء تصرف الحكام وشيوع الاضطرابات التي ارتبطت بظهور الأمراض الفتاكة والحوادث الطبيعية المدمرة، الأمر الذي أدى إلى تشتت وهلاك كثير من سكان الجزائر واشتداد الضائقة الاقتصادية وغلاء الأسعار وشح الأقوات وإتلاف المزروعات، وبذلك تناقص عدد السكان وبقيت ساحات كبيرة من الأراضي الزراعية غير مستغلة.

ج - الجراد والجفاف

عرفت الجزائر آفات أخرى تمثلت في غزو الجراد وانتشار الجفاف، مما أضر أينما ضرر بالجزائر إبان العهد العثماني اجتماعيا وصحيا واقتصاديا، وتسبب في اختفاء الأقوات وهلاك كثير من السكان، ولقد اعتاد الناس حدوث المجاعات إثر سنوات القحط والجفاف.

وفي أعقاب زحف الجراد، الأمر الذي كان يؤدي إلى انتشار الأمراض وتكاثر الأوبئة، فمن الفترات التي عرفت فيها البلاد الجزائرية زحف الجراد سنشير إلى السنوات التالية : 1760 م . 1778 م . 1779 م . 1780 م وما بين 1784م . 1787م . 1798م . 1799م . 1800م . 1804م . 1816م . 1822م . 1824م

¹ ناصر الدين سعيدوني: دراسات وأبحاث، المرجع السابق ، ص 127.

أما الأعوام التي عرفت فيها الجفاف فكانت في 1778م إلى 1779م وكذلك عام 1800م بالإضافة إلى عامي 1806م 1807م والأعوام 1816م . 1819م¹.

¹ ناصر الدين سعيدوني: ورقات جزائرية، المرجع السابق، ص 564.

خلاصة:

وفي ختام هذا الفصل نستخلص ما يلي:

- 1- امتزاج وتزاوج الذوق المحلي بالذوق العثماني في الميدان العمراني الذي ساهم في ازدهار الحضارة العربية الإسلامية وخلق نمط جديد في الهندسة والعمران.
- 2- تأثر المجتمع الجزائري ببعض العادات والتقاليد التركية، وامتزاجها بالتقاليد الجزائرية.
- 3- من خلال دراسة وضعية المرأة آنذاك نقول : أنها كانت محدودة الدور مقارنة بما هي عليه الآن، فتمثل دورها في قيامها بالأعمال المنزلية، واقتصرت الدور الفعلي للمرأة في بعض الأحيان كمشاركتها في السياسة والحروب وما توفره من منتجات يدوية.
- 4- الملاحظ على الحالة الصحية أن منشأتها كانت قليلة أو نادرة، وأنها لم تكن لمصلحة الناس عموماً بل كانت لمصلحة منشئها والطبقة الحاكمة.
- 5- في المرحلة الأخيرة من حياة الدولة العثمانية أصبحت الحالة الصحية والمعاشية تزداد سوءاً وتدهوراً باستمرار، مما أثر سلباً على نمو السكان وترك آثاراً سيئة على وضعهم الاجتماعي.
- 6- كان لوفرة المواد الغذائية ووفرة المياه من الآبار والعيون واستهلاك زيت الزيتون بكثرة، وعدم اكتظاظ السكان والاهتمام بالنظافة التي تفرضها العقيدة، وهو ما ساعد على الوقاية من الكثير من الأمراض.
- 7- يظهر أن الحالة الصحية كانت متردية في حين البلاد كانت بينتها سليمة وصحية بطبعها وأن معظم الأمراض يرجع إلى إهمال الرعاية الصحية.
- 8- أن تدهور الأوضاع الاقتصادية بسبب الفيضانات وهجمات الجراد أدى إلى ظهور المجاعات وانتشار الأوبئة وأثر سلباً على الحالة الصحية. .

الفصل الثالث



الحياة الثقافية لمجتمع الجزائر العثمانية



لقد قيل الكثير عن موقف الترك من الثقافة في الجزائر، وأقصى ما اتهم به على حد قول محمد ميمون الجزائري : (أن الثقافة على عهد الأتراك رهن فراش الاحتضار تلفظ أنفاسها الأخيرة إذ أن الأتراك لم يكونوا يوما ما من دعاة الثقافة، إنما كانوا رجال حرب وأنهم أتوا إلى الجزائر كمحاربين وليسوا بمتقنين ثقافة عربية النزعة، فلا يمكن أن نحكم على شعب بأنه مثقف ثقافة متينة الرصيد ذائعة الصيت وملوكها خلو منها)¹ .

ونحن هنا لا نريد أن نعمق هذا الإتهام ولا أن ندافع عن الترك، بل كل ما نريده هو الوصول إلى معرفة الموقف الحقيقي للعثمانيين من الثقافة والعلم والدين ومتطلباته².

¹ محمد الجزائري: التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية (دخائر المغرب العربي) تقديم وتحقيق محمد بن عبد الكريم، ط 2 ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر ، 1981 ، ص 45.

² أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج 1، المرجع السابق، ص 194.

1- المؤسسات الثقافية

1-1- الوقف

الوقف هو عقد لعمل خيري ذي صبغة دينية يقوم على توفر الواقف الذي له أهلية التبرع بما يملك من ذات أو منفعة على وجود الموقوف، وهو المنفعة التي تصرف على سبيل الحبس، فضلا على توفر الموقوف عليه، وهو المستحق لصرف تلك الذات أو المنفعة ولو كان مصلحة عامة كالمسجد والمدرسة وغيرها، وهذا مع اشتراط صيغة الوقف ولو كانت الصيغة تتعلق بمؤسسة خيرية¹.

أما عن مصادر الأوقاف فهي عبارة عن ممتلكات المواطنين من الطبقة الغنية والمتوسطي الحال يقفونها لمصالح البر والإحسان للعناية بالمنشآت ومساعدة المحتاجين²، فكانت الأوقاف المحبسة على المؤسسات الخيرية وخاصة أماكن العبادة والتعليم تؤدي خدمات اجتماعية وثقافية أساسية في المجتمع الجزائري³، مثل العناية بالحج وتسمى أملاك مكة والمدينة والتي حظيت بأغلبية الأوقاف، فكانت نسبتها حوالي 30% من الأوقاف وذلك نظرا للمكانة التي كانت تتمتع بها⁴. ففي سنة 1837 م بلغ دخل أوقافها في العاصمة 122,503 فرنك وكانت مخصصة لإيواء فقراء مكة والمدينة مجانا وكان الفائض منها يذهب إلى فقراء الأماكن المقدسة.

¹ أحمد مريوش وآخرون: المرجع السابق، ص 30.

² عمار عمورة: الجزائر بوابة التاريخ، المرجع السابق، ص 136.

³ ناصر الدين سعيدوني: الجزائر منطلقات وأفاق مقاربات للواقع الجزائري من خلال قضايا ومفاهيم تاريخية ط1، دار الغرب الإسلامي، 2000، ص 20.

⁴ عقيل نمير : الوقف في الجزائر أثناء القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، مجلة دراسات انسانية، مجلة دورية ندوة 29-30 ماي 2001، تصدرها كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، جمع وتقديم ناصر الدين سعيدوني، دار الحكمة، الجزائر 2001-2002، ص 119.

وكانت هناك أيضا أوقاف سيدي عبد الرحمن، التي كانت تدخل حوالي 600 فرنك سنويا توزع على فقراء مدينة الجزائر بمعدل 3 فرنكات للفرد¹.

وهناك أوقاف مخصصة للأندلسيين ومساعدة المنفيين المسلمين مع ملاحظة أنها قليلة في فحوص مدينة الجزائر².

ولكن هذه الأوقاف لم تكن دائما لأغراض خيرية، ففي أحيان كثيرة كان الناس يوقفون لحماية أملاكهم من الضياع أو لحمايتها من يد السلطة ومن حقهم أن ينصوا على أن يستفيد منها الأحفاد والفقراء، وكانت النساء تستفيد من هذه الأوقاف ولا سيما عند الولادة أو اليتيم أو الفقر، وكثيرا ما كانت الأسر تلجأ إلى طريقة الوقف لعدم ثقتها في صلاح الورثة. ولكن كل هذه الأغراض ثانوية إلى جانب الغرض الرئيسي من الأوقاف، وهو خدمة العلم ومساعدة الفقراء والمساكين³.

وكانت هناك قيم أو وكيل على كل مؤسسة خيرية، وكانت مهمته العناية بالأوقاف ومراقبة الدخل، وكانت الأوقاف لا تباع إلا في الأحوال النادرة وعندما يخشى عليها من التلف، فإذا كانت الأوقاف عامة فإن الدولة تقوم بتعيين رجل صالح يراقبه المجلس. فمن هنا أسهمت مؤسسة الأوقاف في الحياة الاجتماعية والثقافية بفضل ما أوقفته مختلف الشرائح الاجتماعية من عقارات وغيرها لصالح المساجد والزوايا والفقراء وغيرهم، ولولا ذلك لما استطاعت تلك المؤسسات الاستمرار في تأدية وظائفها الدينية والثقافية⁴.

¹ أبو القاسم سعد الله: محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث (بداية الاحتلال)، ط3، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982، ص160.

² عقيل نمير : المرجع السابق، ص 120.

³ أبو القاسم سعد الله: محاضرات في تاريخ الجزائر (بداية الاحتلال)، المرجع السابق، ص 161.

⁴ عائشة غطاس: الحرف والحرفيون بمدينة الجزائر، المرجع السابق، ص 85.

1-2-المساجد:

كثيرا ما يختلط على الباحث اسم الجامع والمسجد والزاوية، ذلك أن بعض الجوامع والمساجد كانت تابعة لزاوية معينة، كما أن بعض الزوايا تابعة لجوامع ومساجد معينة. فالمساجد كانت للعبادة والتعليم والزوايا كذلك لكنها كانت مرتبط وملجأ ومسكن للطلبة الغرباء، فالجامع اصطلاحا أكبر حجما من المسجد، فهو الذي يؤدي فيه صلاة جامعة أو الجمعة أو العيدين وكثيرا ما يسمى جامع الخطبة. والعناية بالمساجد كانت ظاهرة بارزة في المجتمع الجزائري المسلم، فلا تكاد توجد قرية أو حي من دون مسجد، فكان هو ملتقى العباد ومجمع الأعيان ومنشط الحياة العلمية والاجتماعية، وهو قلب القرية وروح الحي في المدينة وكان هو الرابطة بين أهل القرية والمدينة¹.

ونظرا لأهمية المسجد في حياة المسلمين لم يكن دوره يقتصر حينذاك على العبادة وخطب الجمعة، بل كان أيضا مكانا لتعليم الصغار والكبار ومنشط للحركة العلمية ومجلسا يلتقي فيه المسلمون على مختلف مستوياتهم².

وتختلف الإحصائيات حول عدد المساجد الجزائرية خلال العهد العثماني ففي مدينة الجزائر أوائل القرن 19م. ذكر باناتي (Panati) الإيطالي أن هاته المدينة كانت تضم تسعة جوامع وخمسين مسجد، في حين يقول ديفوكس (Difox) أن عددها عند 1830م ثلاثة عشر جامعا كبيرا ومائة وتسعة مسجد واثنان وثلاثون قبة واثنان عشر زاوية، فمجموع ما فيها بذلك مئة وستة وسبعون مؤسسة.

¹ أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج 1، المرجع السابق، ص 145-146.

² عمار عمورة: الجزائر بوابة التاريخ، المرجع السابق، ص 135.

1-3- الزوايا:

كان من أهم ميزات العهد العثماني انتشار الطرق الصوفية، وكانت كل مدينة محروسة بولي من الأولياء يحميها من كل شيء، فمدينة الجزائر كانت تعج بالزوايا والأضرحة والقباب المقامة على الأولياء والصالحين منها زاوية عبد القادر الجيلالي وزاوية عبد الرحمن الثعالبي وزاوية سيدي أحمد بن عبد الله وزاوية سيدي الجودي، وسيدي السعدي¹ والمدرسة الحسينية التي بها زاوية ذات طابقين، وزاوية الأندلس وزاوية قشاش بباب الجيزة وزاوية الشرفة وزاوية سوق الجمعة².

وتثبت الإحصائيات أن عدد الزوايا والأضرحة كان يفوق عدد المساجد والمدارس³. ولعبت الزاوية في الريف دورا أكثر إيجابية من المدينة، فبالإضافة إلى وظيفتها الدينية فهي معاهد لتعليم الشبان وتزويد العامة، وكانت الزوايا الريفية تشمل أيضا مسجدا وقبة الشيخ المرابط ومبيت للطلبة الداخلين ومساكن الغرباء والفقراء.

ومن أهم ما كان يميز بعض الزوايا والأضرحة كونها ملجأ يلجأ إليه الهاربون من العقاب والقتل مهما كانت جرائمهم، ويكون مسؤول الزاوية هو المرابط نفسه أو ورثته.

1-4- المدارس والمعاهد

في الواقع أن الجزائر كلها لم تكن هناك جامعة واحدة بالمعنى المتعارف عليه، فقد خلت الجزائر من مؤسسة التعليم العالي ولم يكن للجزائر جامعة إسلامية كالأزهر والقيروان والزيتونة غير أن دروس جوامعها الكبيرة كانت تظاهي بل قد تفوق أحيانا دروس الجامع الأموي بدمشق والحرمين الشريفين، لتنوع الدراسات فيها وتردد الأساتذة

¹ أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج 1، المرجع السابق، ص 263.

² عبد الرحمان الجيلالي: المرجع السابق، ص 540.

³ كان في قسنطينة حوالي 16 زاوية منها زاوية سيدي الكتاني وسيدي المناطفي وسيدي عبد المؤمن وسيدي مسيد وسيدي مخلوف وسيدي سيدي عفان، وقد اشتهرت تلمسان بزوايا نذكر منها زاوية سيدي الزين وسيدي بومدين وزاوية محمد سنوسي وعين الحوت، كما تصل زوايا بجاية إلى 50 زاوية منها زاوية علي الشريف بأقبو وسيدي منصور. (ينظر: أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج 1، المرجع السابق، ص 263).

عليها من مختلف أنحاء العالم الإسلامي. ومهما كان الأمر فقد كثرت في الجزائر المدارس الابتدائية بين زواياها مما جعل الزوار ينبهرون بها¹.

أما الجزائر العاصمة فالأقوال متضاربة لاختلاطها بالمساجد والزوايا، وبهذا كانت وظيفة المدرسة الابتدائية هامة فهي تتقف وتربي الأطفال على قواعد الإسلام وتقوم بتحفيظ القرآن الكريم الذي هو أساس الثقافة، وتعلم مبادئ العلوم القراءة والكتابة كما تساهم في إعطاء الطفل رصيда من المعارف التي تساعد على شق طريقه في المجتمع بعد خروجه منها، فكانت تعد شعبا محصنا لا يوجد فيه إلا عدد قليل من الأميين².

وقد تختلط وظيفة الزاوية بالمدرسة حيث كانت بعض الزوايا مدارس، لذلك لم تكن للجزائر العثمانية مدرسة مستقلة للتعليم بالمعنى الذي نفهمه اليوم. ويكاد الجامع الكبير بالعاصمة ومدرسته العليا يشكلان نواة الجامعة في الجزائر، ففي الجامع كانت الدروس كثيرة يقوم بها أبرز العلماء وكانت حلقات الدروس فيه تصل إلى إثني عشر حلقة، وقد ذكرنا من أشهر مدرسيه سعيد قدورة وعلي الأنصاري وأحمد بن عمار ومحمد قدورة وعلي بن الأمين ومحمد بن الشاهد.

كما كان ضيوف العلماء المسلمين يلقون فيه الدروس ويتلمذون فيه على علماء الجزائر، وكان عدد الأساتذة الذين يلقون الدروس بالجامع والمدرسة 19 أستاذ، بالإضافة إلى عدد من المساعدين ونحوهم وهذا بدون الأساتذة الذين يقرؤون صحيح البخاري³.

1-5 المكتبات:

كانت الجزائر في العهد العثماني من البلدان الكثيرة الكتب والمكتبات، وكانت الكتب تنتج محليا عن طريق التأليف والنسخ أو تجلب من الخارج، وتختلف طرق اقتنائها من

¹ أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج 1، المرجع السابق، ص 169-273.

² توجد بمدينة تلمسان 50 مدرسة ابتدائية ومدرستين للتعليم الثانوي والعالي، أما قسنطينة فقد كان بها حوالي 90 مدرسة و7 مدارس للتعليم الثانوي. (ينظر: أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج 1، المرجع السابق، ص 169).

³ أبو القاسم سعد الله: المرجع نفسه، ص 175-296.

استنساخ ونسخ، ذلك أن الحريصين على جمع الكتب كانوا ينسخون الكتب بأنفسهم أو يستنسخون عن غيرهم.

وكان الشراء من أهم الطرق للحصول على الكتب ولم يكن ذلك مقصورا على الأغنياء بل كان يشمل حتى الفقراء العلماء، وكان الحج والرحلة في طلب العلم وراء انتشار حركة التأليف والنسخ واقتناء الكتب.

ويمكن تقسيم المكتبات في الجزائر إلى مكتبات عامة وخاصة، فالمقصود بالمكتبات العامة هو تلك المكتبات الملحقة بالمساجد والزوايا والمدارس، وكانت مفتوحة للطلبة خصوصا ثم لجميع القراء المسلمين. ولا نتوقع وجود مكتبة عمومية أو شعبية أو وطنية، وكانت الكتب لهذه الخزائن تقل وتكثر تبعا لأهمية الوقف الذي تتغذى منه.

وتبعا لأهمية الجامع وأمانة الوكيل وضخامة عدد السكان، ومن أشهر هذا النوع من المكتبات¹ مكتبة الجامع الكبير التي تجاوزت أربعين ألف مجلد ومكتبة جامع كتشاوة²، أما المكتبات الخاصة فكثيرة وليس من السهل حصرها غير أن بعض العائلات قد اشتهرت لطول عهدها بالنفوذ بالمكتبات دون الأخرى³.

ولما كانت السيادة في العهد العثماني للعلوم الدينية فإن محتوى المكتبات كان أغلبها لا يخرج عن هذه العلوم، فكثرتها كانت في كتب التفسير والقرآن والأحاديث النبوية وشرحها وكتب الفقه والتوحيد، وكذا العلوم اللغوية التي كان لها حظ من الكتب. وكان

¹ أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق، ص ص 285-296.

² عبد الرحمان الجيلالي: المرجع السابق، ص 538.

³ ومن المكتبات الخاصة بقسنطينة نذكر مكتبة عائلة الفكون التي كانت تضم ما يزيد عن 2500 مجلد، ومكتبة باشتارزي وهي الأخرى تحوي 500 مجلد، وفي وهران كان هناك مكتبة أبي راس التي حسبها له أحد بابايات وهران وسماها بيت المذاهب الأربعة ومكتبة الزجاي وهي أحد الخزائن الكبرى التي احتوت على أحمال من المجلدات والأصفار وكذا مكتبة شيخ العرب بن الصخري ومكتبة محمد بن اسماعيل التي احتوت على 1500 تأليف. (أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج 1، المرجع السابق، ص 297).

مصير المكتبات غير آمن فقد ضاع وتلف كثير منها بالحروب والأوبئة والنهب والتهريب والإهمال.

وأخيرا نقول أن المكتبات ليست إلا وسيلة لنشر التعليم وشحن أذهان العلماء والمدرسين¹.

2- الحياة الفكرية والعلمية:

2-1- اللغة والدين

أ- اللغة:

نشأ عن تعدد عناصر سكان الجزائر اختلاف في لغة البلاد العامة إلى درجة أن أصبحت لها صفة خاصة بها في مفرداتها وتركيبها وجملها، وعباراتها متداخلة لا يفهمها إلا من مارس حياة المدنية وامتزج بأهلها، وإن كانت هي في الجملة تظهر عليها مسحة عربية². وبلغ عدد اللغات نفس عدد الأجناس تقريبا³، فتأثر المجتمع الجزائري بكل من المؤثرات العثمانية والتركية الأناضولية إذ كانت اللغة الرسمية للإيالة هي التركية العثمانية، وهي بذاتها عبارة عن مزيج من الكلمات العربية والفارسية والتركية وهي شديدة الصعوبة والترجمة، وقد جلب الموظفين للأوجاق من الأناضول شكلا آخر من التركية، وبسبب انشغال الجزائر بالعمل العسكري فإن المساهمات التركية في ميدان اللغة قد تركزت في الجانب العسكري، فهناك اثنان وسبعون كلمة عسكرية في طبيعتها بين ستمائة وأربع وثلاثون كلمة تركية مستعملة في الجزائر اليوم.

وقد بقيت العربية اللغة الشائعة للاستعمال لأنها كانت اللغة التي تجمع عرب الداخل الحضر، والذين سبق سكناهم الفتح التركي والمهاجرين الأسبان⁴، ولعل أهم ما يميز لهجة

¹ أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج 1، المرجع السابق، ص ص 297-298-310.

² عبد الرحمان الجيلالي: المرجع السابق، ص 484.

³ شارل أندري جوليان: تاريخ افريقيا الشمالية (تونس - الجزائر - المغرب الأقصى من الفتح الاسلامي إلى 1830،

تعريب محمد مزالي والبشير سلامة، ج 2، ط3، الدار التونسية للنشر، ص 339.

⁴ وليم سبنسر: المصدر السابق، ص 85.

هؤلاء المهاجرين هو قلب القاف ألف وهذا عكس لهجة سكان الأرياف والبوادي، وقد ساعد الأندلسيين بلهجتهم الخاصة على انتشار واستعمال اللغة العربية في المناطق التي ظلت حتى قدومهم تستعمل اللهجة البربرية¹.

أما عن مدى انتشار اللغة البربرية واستعمالها بالجزائر العاصمة فقد ذهب ويليام مارسى (Wilyam Marsi) أن نسبة الناطقين بها² 34 % ، في حين تحدث اليهود اللغة العبرية فيما بينهم³.

وأخيرا كان جانب من العبيد وبعض التجار الأروبيين ونذرا ممن اعتنقوا الإسلام حديثا يتكلمون اللغة الفرانكاوية (Langue Franca) لغة المعاملات وهي خليط من العربية والإسبانية والتركية⁴ والإيطالية، وكذلك بعض الكلمات البرتغالية⁵.

ب - الدين

كان الشعب الجزائري على المذهب المالكي أما الأتراك والكراغلة كانوا يعتقدون المذهب الحنفي الذي أصبح في عهدهم هو المذهب الرسمي، ولذا كان يوجد بالجزائر مفتي مالكي بجانب المفتي الأكبر الحنفي الذي يسمى بشيخ الإسلام، إلا أنه كان هو الشخصية الدينية الأولى في البلاد يحتل مرتبة مرموقة في السلم الاجتماعي⁶.

¹ ناصر الدين سعيدوني: دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر (العهد العثماني) المرجع السابق، ص 145.

² عبد الرحمان الجيلالي: المرجع السابق، ص 485.

³ جون ب وولف: المصدر السابق، ص 172.

⁴ دخلت بعض الكلمات التركية بعد أن أوتي بعدد كبير من الناس إلى الجزائر بعد المعركة التي قتل فيها الملك

البرتغالي سيباستيان 1578 . (ينظر: شارل أندري جوليان: تاريخ افريقيا الشمالية، المصدر السابق، ص 341)

⁵ شارل أندري جوليان: المصدر السابق، ص 340.

⁶ عمار عمورة، نبيل داوودة: المرجع السابق، ص 230.

ويلاحظ تمسك السكان الشديد بالدين الإسلامي والعمل على تطبيق أركانه ومبادئه العامة، وتفرعاته المختلفة سواء في ميدان العبادات كالصوم، الصلاة، الزكاة والحج أو المعاملات كالزواج، الإرث والطلاق¹.

وكانت فريضة الحج تتم عن طريق البحر تحوي عدد كبير من المسلمين، فيذكر أنه في عام 1788م كان يخرج من مرسى العاصمة ثلاث سفن محملة بالحجاج قاصدين مكة، وغالبا ما يعتبر العائد من فريضة الحج نفسه مرابطا، ويتسم سلوكه بالانعزال والانصراف عن الدنيا².

وانتشرت الطرق الصوفية بكثرة في هذه الفترة بتشجيع من العثمانيين، إذ كان يقوم مشايخ الصوفية بركني التعليم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر اللذان حث عليهما الكتاب الكريم، فكانت بذلك أشبه بمدرسة عظمى فيها المشايخ والأساتذة³.

غير أن التمسك بالدين الإسلامي صاحبه مظاهر كالدروشة والشعوذة والخرافات والأباطيل والبدع، وكان من أسباب شيوعها الطرق والفرق الدينية المختلفة، ومن أنواع المشعوذات والخرافات الإيمان بقدرة الموتى على رزق الأطفال ومنع المصائب والشقاء من الأمراض والأسقام وإقامة الحفلات على قبورهم وأضرحتهم والإيمان بجدوى التماسم والتعاويز في شفاء الأمراض والزهة والتكشف والتواكل أحيانا⁴.

إلى جانب الدين الإسلامي توجد أقلية يهودية لا تتعدى 1% من مجموع السكان لها معابدها الخاصة، وتمارس شعائرها الدينية بكل حرية وتمتلك مدارس تعلم فيها اللغة العبرية وتعاليم التوراة، وتحتكم إلى قضاة خاصين بهم.

¹ يحي بوعزيز : الحالة الاقتصادية والاجتماعية للمجتمع الريفي بالشرق الجزائري خلال القرن 19م، المرجع السابق، ص 176.

² عمار عمورة : الجزائر بوابة التاريخ المرجع السابق، ص 134.

³ عبد الرحمان الجيلاني: المرجع السابق، ص 260.

⁴ يحي بوعزيز : الحالة الاقتصادية والاجتماعية للمجتمع الريفي بالشرق الجزائري خلال القرن 19م، المرجع السابق، ص 176.

و رغم العدد القليل للمسيحيين إلا أنه كانت توجد كنائس بالجزائر، وكانوا يتحاكمون إلى القنصليات المسيحية الموجودة بالجزائر ولا تطبق عليهم قوانين البلاد إلا إذا كان النزاع وقع بينهم وبين المسلمين¹.

2-2- القضاء والتعليم

أ- القضاء:

كانت السلطة القضائية في الجزائر حالها حال جميع البلدان الإسلامية مصدرها القرآن والأحكام المستخلصة منه²، كانت تشكل القانون المدني ويضاف إلى هذا المصدر العرف والعادة المتبعة والسوابق العدلية³.

وكان القاضي يلعب دورا بالغ الأهمية إذ كانت وظيفته دينية في الأساس، وصلاحياته قد امتدت إلى مختلف مجالات الحياة فهو لا يعاقب المخلين بالقانون فحسب، بل يفصل في الخلافات وينظر في الاحتجاجات ويراقب ويرعى شؤون القاصرين ويسهر بنفسه على الأرامل واليتامى، ولم يكن القاضي مجرد حكم بل هو موظف سامي له مسؤوليات إدارية اقتصادية فالقرارات الصادرة عن السلطة المركزية أي عن الباب العالي والمتعلقة بالحياة توجه إلى القضاء⁴.

وكان داي الجزائر يعين قاضيان قاضي تركي حيث يطبق أحكام المذهب الحنفي على الأتراك والكراغلة وآخر يطبق أحكام المذهب المالكي على الأهالي، فتميز بذلك القضاء في مدينة الجزائر بالازدواجية والثنائية، وكلاهما يعقدان جلسات يومية للحكم في القضايا التي تعرض عليه وذلك فيما عدا يوم الجمعة والأطراف في النزاع يقومون بالمرافعة والدفاع عن قضاياهم بأنفسهم لأنه لم يكن يوجد وقتئذ محامون وبعد المرافعة

¹ عمار عمورة: الموجز في تاريخ الجزائر، ط1، دار ربحانة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2002، ص190.

² Mouloud gaid: Algérie sous les turcs, édition mimouni, 2° Edition Alger, p202.

³ عمار عمورة: الجزائر بوابة التاريخ، المرجع السابق، ص 117.

⁴ عائشة غطاس: الحرف والحرفيون بمدينة الجزائر، المرجع السابق، ص 76.

مباشرة يصدر القاضي حكمه نهائياً¹. فكان بذلك الحكم في العهد العثماني لا يمكن استئنافه².

كانت المحاكم الحنفية والمالكية متساوية في اختصاصاتها، ولكن في حالات القضايا المختلطة يتمتع التركي دائماً بحق رفع قضيته ويستأنف أمام المفتي الحنفي³ فكانت بذلك السلطة القضائية تتصف بقسوة أحكامها وبساطة مرافعاتها ومحاكماتها فهي تتم بدون ثمن وبلا استدعاء وبدون تأخير، وتعتمد على رأي الداي والقاضي وأقوال الشهود، وفي حالة عدم توفر الحجج تبرأ ساحة المتهم وتوَجَّل محاكمته شهراً وهي أقصى مدة⁴.

وتتسم الأحكام المتعلقة بقضايا القتل والسرقة والزنا وقطع الطريق والخيانة بالقسوة، فيعاقب على السرقة بقطع اليد ولو كان مسلماً، ومثال ذلك الحادثة التي شهدتها فندلين شلوصر فيقول : (وقد رأيت طفلاً قطعت يده اليمنى لأنه سرق مهمازا من دكان تاجر)⁵. ويعاقب على القتل بالقتل سواء شنقاً أو بقطع الرأس أو يرمى حياً من أعالي جدران جهة البحر، أو يوضع في كيس ويلقى في البحر، مثل المرأة الزانية المتزوجة وكذلك المرأة الحرة التي وجدت مع اليهود والمسيحيين⁶.

ويعاقب البقية بالضرب على الأرجل وهم يفضلون الفلقة على السجن، وكان هذا النوع من العقاب مستعملاً في أيام الداي ولو كان وزيراً، ذلك أن هذا العقاب لا يلصق به أي عار أما دخول السجن فإن الجزائري كان يخافه كل الخوف لأنه يبعده عن أسرته من جهة ويحول بينه وبين واجباته الأخرى من جهة ثانية.

¹ عمار عمورة: الجزائر بوابة التاريخ المرجع السابق، ص 118.

² Mouloud gaid: op-cit,p202.

³ عمار عمورة: الجزائر بوابة التاريخ، المرجع السابق، ص 118.

⁴ ناصر الدين سعيدوني: النظام المالي، المرجع السابق، ص 50.

⁵ فندلين شلوصر: المصدر السابق، ص 82.

⁶ عمار عمورة : الجزائر بوابة التاريخ، المرجع السابق، ص 118.

وبالتالي فإنه لم يتعود مثل هذا العقاب، وأقصى العقوبات بالنسبة له هي الغرامة المالية¹، أما المجرمون الأتراك كانوا يخنفون سرا في دار رئيس الإنكشارية، أما اليهود فكانوا يحتكمون فيما يتعلق بأحوالهم الشخصية إلى قضاة خاصين بهم، ورغم العدد القليل للمسيحيين إلا أنهم كانوا يتحاكمون إلى القنصليات المسيحية الموجودة في الجزائر². فكان بذلك كل دين يحتكم إلى قاضيه إلا في حالة قضية بين مسلم ومسيحي أو مسلم ويهودي، فهنا الداي هو الذي يحكمها³.

ب- التعليم:

لم يكن للسلطة العثمانية في الجزائر سياسة للتعليم، بل نقول أن سياسة السلطة هي عدم التدخل في شؤون التعليم، فإذا انتشر التعليم فالأمر لا يعنيها وإذا تقلص فالأمر كذلك لا يعنيها، إلا أن هناك استثناءات لهذا الحكم في بعض المحاولات الفردية التي قام بها بعض البايات⁴، والمساهمة الوحيدة للأتراك في دفع هذا الميدان برصد الأوقاف التي تتخذ عندهم طابعا دينيا كمساعدة الطلبة وصيانة المساجد⁵. فكان إذا التعليم خاصا يقوم على جهود الأفراد والمؤسسات الخيرية ويدخل في هذا العموم رجال الدولة ولكن كأفراد فالآباء هم الذين كانوا يسهرون على تعلم أطفالهم⁶.

وكان التعليم مقسما إلى مراحل ثلاث:

المرحلة الأولى : التعليم الابتدائي يتم فيها حفظ القرآن الكريم، أو جزء منه بعد تعلم الحروف والقراءة والكتابة. وتدوم من سن الخامسة إلى حدود الثانية عشر، ويشترك فيها كل الأطفال من الجنسين مع ملاحظة أن البنات كلما تقدم بها السن قل توجيهها إلى

¹ أبو العيد دودو: المرجع السابق، ص ص 108-110.

² عمار عمورة: الجزائر بوابة التاريخ، المرجع السابق، ص 119.

³ Mouloud gaid:op-cit,p202.

⁴ أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج 1، المرجع السابق، ص 314.

⁵ أبو القاسم سعد الله: أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج 5، دار البصائر، الجزائر 2007، ص 173.

⁶ أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج 1، المرجع السابق، ص 314.

الكتاب الذي يجري فيه تحفيظ القرآن ومبادئ اللغة العربية، ويجري تحفيظ القرآن في ألواح خشبية وتلاوة شخصية أو جماعية بأصوات عالية على الحصائر في الصباح والمساء، ولا تخلو قرية من الكتاب والمسجد الذي يؤدي فيه هذا الدور¹.

وهذا المستوى من التعليم هو الذي كان منتشرًا بشكل ملحوظ بين الجزائريين، فهو تعليم ديني بالدرجة الأولى الهدف منه فهم تعاليم الدين ورفع الأمية في الأدب والإنشاء². ويحدثنا الرحالة الألماني مالتسان (Maltisan) عن التعليم في الجزائر فيقول: (بأن القاعدة العامة الجاري بها العمل في الأوساط الجزائرية التي تحترم نفسها، هي أن جميع الأسر الكريمة تصر كل الإصرار على أن يصل كل طفل إلى درجة طالب علم على الأقل)³.

المرحلة الثانية: التعليم الثانوي يتم فيها حفظ العلوم ثم تشرح من قبل العلماء والأئمة وتدرس مواد النحو والصرف والفقه والتوحيد والحديث والعروض والقوافي، ويقتصر هذا النوع من القراءة على البنين دون البنات وذلك في المدارس والمساجد الكبيرة والزوايا ويقبل عليه الناس بكثرة حسب الظروف.

المرحلة الثالثة : التعليم العالي ويتم فيها التوسع والتعمق في دراسة العلوم السابقة الدينية والعربية واللغوية، ويتخصص الطلبة حسب ميولهم ويهتمون خاصة بمادة الفقه والتشريع الإسلامي التي تلعب دورا مهما وأساسيا في حياة مجتمع الأرياف الجزائرية دينيا وماديا وخلقيا، وكثيرا ما يرحل الطلبة إلى الجامعات والمعاهد المشهورة خارج الوطن، كالأزهر والزيتونة والقيروان للتخصص والتعمق⁴، في حين قام العثمانيون باستقبال علماء استنبول

¹ يحي بوعزيز : الحياة الاقتصادية والاجتماعية للمجتمع الريفي بالشرق الجزائري خلال القرن 19م، المرجع السابق، ص 177.

² أبو القاسم سعد الله: ابحاث وراء في تاريخ الجزائر، المرجع السابق، ص 174.

³ هاينريش فون مالتسان: المصدر السابق، ص 83.

⁴ يحي بوعزيز: الحياة الاقتصادية والاجتماعية للمجتمع الريفي بالشرق الجزائري خلال القرن 19م، المرجع السابق، ص 177.

والمغرب والمشرق¹، ومن هذا ظهر إتصال ثقافي بين الجزائريين في تلك الدول والعلماء الوافدين فحدث تبادل خصب ومثمر لا سيما إذا نظرنا إليه بمقياس ذلك العصر². وكانت تستغرق دراسة هذه المرحلة مدة سبع سنوات، ولا شيء يدرس بعدها في المدارس إلا أن بعض المجتهدين ينكبون على قراءة بعض الكتب³. ومما سبق ذكره ندرك أنه لم يكن للعثمانيين في الجزائر سياسة للتعليم، ولا خطة رسمية لتشجيعه والعناية بأهله وتطويره وتوجيهه وجهة تخدم المصالح الإسلامية العليا من جهة، والمصالح الوطنية الجزائرية من جهة أخرى. فركد التعليم وضاق مجاله وإفتقر رجاله وإنحط مستواه مما زاد في هذا الميدان تسرب الخرافات إلى عقول المعلمين والمتعلمين بل رجال الدولة أنفسهم⁴.

2-3- العلوم والفنون

أ- العلوم:

• الحساب والفلك

إذا نظرنا إلى الإنتاج العلمي وجدنا منه كمية ضئيلة خلال العهد العثماني، فقد عاش علماء الفلك والحساب على تراث القرن التاسع 1500م، وكان علم الفلك لا يخلو من الخرافة والسحر رغم محاولتهم أن يصلوا إلى نتيجة علمية، فقد ولع أشباه العلماء باستخدام الروحانيات واستعمال الحروف والأعداد، حتى اختلط عندهم بالعلم والشعوذة بالحقيقة وتغلب مع الجهل روح الشعوذة على روح العلم، وساد ذلك الخاصة والعامة إلا ما نذر.

¹ أبو القاسم سعد الله: أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، المرجع السابق، ص 183.

² العيد مسعود: العلاقات الثقافية بين الجزائر والمشرق في العهد العثماني، مجلة سيرتا مجلة تاريخية اجتماعية العدد 1، يصدرها دوريا معهد العلوم الاجتماعية، جامعة قسنطينة، مطبعة البعث، الجزائر، 1399 هـ / 1979م، ص 46-47.

³ عبد الحميد زوزو: المرجع السابق، ص 212.

⁴ أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج 1، المرجع السابق، ص ص 195-321.

ونجد من علمائهم سحنون بن عثمان ومحمد بن علي السلاطي في كتابه "معالم الاستبصار بتفصيل الأزمان ومنافع البوادي والأمصار وهو كتاب في الفلك والتنجيم، ووالده محمد بن يوسف السنوسي، وعلي بن محمد الدساس (Adassas) صاحب "شرح اليواقيت".

وقد أسهم عدد من التلمسانيين في الفلك ونحوه كالتنجيم والحروف المتصلة بالتصوف وعلوم الغيبات، وقد ألف أحد الجزائريين رسالة في الفلك سماها "الحاشية الإختصارية الرملية الفلكية"¹.

• الطب:

كانت العلوم الطبية أكبر من العناية بالعلوم الأخرى، ذلك أن الإنسان كان في حاجة إلى المعالجة رغم ميدان الإيمان بالقضاء والقدر، ومعظم الأدوية الشائعة كانت تتناول الجانب الخارجي من جسم الإنسان، فالجراحة ونحوها كانت شبه معدومة، وكلمة حكيم كانت هي الشائعة بين الناس وكان الطبيب محل احترام وتبجيل.

وكان بعض العلماء وأشباههم يركبون الأدوية من النباتات المتوفرة في البلاد ويصنعون المعاجين والأشربة ويستعملون وسائل الكي والحجامة ونحو ذلك . وقد وضعوا مجموعة من الوصفات للتغلب على الأمراض الشائعة كوجع الرأس والمعدة والحروق والإصابات الجلدية ووجع المفاصل وغيرها. كما نجدهم قد عينوا أدوية خاصة للتغلب على السموم والتأثيرات الخارجية الأخرى، كالإصابة من حرارة الشمس. والغريب أنه بالرغم من تقدم علم الطب فإن الجزائريين كانوا يؤمنون بأن الطب مقصور على الأوروبيين.

ونجد أن كبار المسؤولين في الدولة لم يشجعوا دراسة الطب في المدارس، لكنهم كانوا مهتمين فقط بالأسباب العاجلة. وكان أبرز من ألف في الطب ابن حمادوش، أحمد

¹ أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي 1500-1830، ج 2 ، ط دار البضائر ، الجزائر ، 2009، ص ص 408-409.

بن قاسم البوني الذي خلط بين الطب والطب الروحاني أعلام أهل القريحة في الأدوية الصحيحة " و"ميسر المسارب في الأكل والطب مع المشارب، ومحمد بن علي بن باديس الصنهاجي الذي ألف في الأدوية ومنافعها سماه المنافع البيئة وما يصلح بالأربعة أزمنة.¹

ب- الفنون

رغم القيود الدينية في المجال الفني، فإن هناك بعض الفنون قد شهدت تقدما ملحوظا ونذكر من ذلك:

• فن العمارة

ويظهر في مساجد العاصمة وبعض الصور التي حملها أصحابها من المشرق إلى الجزائر وقلدها السكان، وقد تقدم فن تزيين البيوت الديكور " وظهر فيه الذوق المحلي، وكانت الجزائر تستورد الرخام من إيطاليا والفسيفساء من تونس وإسبانيا وإيطاليا أيضا . وظهرت براعة الجزائريين في الأعمال الخشبية كالأبواب المنقوشة والشرفات ذات الأعمدة الجذابة.²

كما تميز الفن المعماري باستعمال النقوش الرشيقة والحدائق والمياه وتماثيل الحيوانات والفوارات، وقد انتشر عند الحضر عادة بناء الأحواش في بساتينهم التي يملكونها خارج المدينة ويزينونها بأنواع الأسلحة الثمينة والآلات الموسيقية، وقد لاحظ الأوروبيون طريقة إعداد مواد البناء الواقية من الرطوبة والحرارة.

• الخط:

كان التنفن في الخط والكتابة من وسائل التعبير الجمالي في هذا العهد، ففي الوقت الذي غاب فيه التصوير لعب الخط دورا بارزا في إظهار المواهب الفنية، وكانت الكتابة المنحوتة والمنقوشة على جدران المساجد وأبوابها ومحاريبها، وكذلك القصور كانت تجمع

¹ أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق، ص ص 418-424.

² أبو القاسم سعد الله: محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث، المرجع السابق، ص 170.

بين فن الخط والتصوير والنحت، ومع ذلك لا نجد تأليفا خاصا بهذا الفن من علماء الجزائر¹.

ومن حيث الخط وهندسته وأشكاله المستعملة بالجزائر فإنه يمتاز من بين أشكال الخط العربي بمظهره المغربي المستطيل وطابعه الجزائري الخاص المنبثق عن الخط الكوفي القديم، إضافة إلى الخط الأندلسي المستدير والخط الفارسي والنسخي ونوع الرقعة إلى غير ذلك².

وقد اشتهرت أسرة ابن صارمشق التلمسانية بالنقش والخطوط ومنها المعلم أحمد بن محمد ابن صارمشق والمهندس الهاشمي ابن صارمشق وكذا الإصطاحسين وعلي بن محمد التونسي، وكذا إبراهيم الجركلي الذي نقش الآيات المحفورة في جامع كتشاوة³.

• الرسم:

لم يكن الرسم منعما كما يعتقد البعض، والفنانون لم يجدوا تشجيعا كالذي وجده فنانو عصر النهضة في إيطاليا وغيرها، ورغم هذا نقول ليس صحيحا أن الجزائريين كانوا لا ينتجون الرسوم الفنية، لأن الدين قد حرّمها أو أنهم لم يكونوا يفهمون البعد وتناسق الألوان في الصور فقد عثر على لوحة رسمها بعض الجزائريين 1824م بطلب من حسين باشا وهي تصور المعركة بين الإنجليز والجزائريين في السنة المذكورة.

وهكذا فإننا إذا حكمنا من التراث المكتوب فإن مساهمة المؤلفين الجزائريين في الفنون تكاد تكون معدومة. أما في العلوم فإن مساهمتهم طبية لكنها لم تبلغ مبلغ تأليفهم في العلوم الشرعية والعقلية الأخرى⁴.

¹ أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج 2، المرجع السابق، ص 447-448.

² عبد الرحمان الجيلالي: المرجع السابق، ص 551.

³ أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج 2، المرجع السابق، ص 450.

⁴ أبو القاسم سعد الله: المرجع نفسه، ص 449-450.

• الطرز:

كان يعرف في العواصم الجزائرية باسم دار المعلمة، وهو عنوان عام كان يطلق هنا على مدارس البنات هو مدرسة صناعية خاصة بالنساء، وفي هذا الحرم تتعلم البنات التطريز والتشبيك وصناعة زخرفة الملابس ونسيج الزرابي والخياطة والفصالة وأغلب هذه الفنون كان متأثرا بالطابع الشرقي لا سيما منه الطابع التركي والفارسي والأندلسي¹.

• الموسيقى

يظهر أنه رغم إختلاف وجهة نظر حول الموسيقى والغناء، فإن المجتمع كان لا يستغني عنها وهناك ثلاث مناسبات على الأقل تشيع فيها الموسيقى والغناء: المناسبات الإجتماعية المناسبات الدينية المناسبات الرسمية.

وكانت النساء تعزفن الموسيقى أثناء حفلات الدنوش، وتثبت بعض الوثائق أن هناك عازفين كانوا ينتقلون من بلد حتى على المستوى الرسمي، وأن الحفلات الرسمية كانت تقام في الأقاليم إذا دعت المناسبة، وكانوا يجازون في الحفلات الخاصة مجازاة سخية وذلك أن الأهالي شديدي الحرص على سماع الموسيقى والتمتع بالإنشاد، وكان أهل الحضر يحتفظون بآلات موسيقية يعزفون بها عندما يكونون بمفردهم كنوع من أنواع التسلية والهواية.

وكان هناك الكثير من الهواة المشتغلين بالموسيقى يعزفونها أمام العامة في أوقات فراغهم، وهناك أنواع من الموسيقى موسيقى الحضر أو الأندلسية²، ونظموا الشعر الفصيح منه والملحون ولهم في فنونه معان رشيقة وتعبير رقيقة، وحكم بالغة وضعوا له الأنغام والألحان ولا يزال بعضها مستعملا إلى الآن³.

¹ عبد الرحمان الجيلالي: المرجع السابق، ص 523.

² أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج 2، المرجع السابق، ص 440-441.

³ عبد الرحمان الجيلالي: المرجع السابق، ص 551.

وكان بذلك معظم أنواعها حي ولذيذ وكان العزف فيها يتم من الذاكرة، كما أنها بلغت من التعدد والتنوع أن أصبحت لها الفرق الضخمة البالغة 20 أو 30 عازف، أما آلاتها فالرباب والعود وهناك أنواع مختلفة من القيتار وغيرها.

ويستعمل عازفو البدو أيضا آلات موسيقية تناسب عقليتهم ووسائلهم المعاشية وهم لا يكتبون موسيقاهم، وآلاتهم هي الرباب ذات الوتر الواحد والقصبة والبندار، ويشترك في هذه الطريقة من العزف المداحون وبعض الدراويش، ومختلف مدائحهم يعتمد على سيرة الصحابة والسلف والقصص.

أما موسيقى الأتراك التي جاؤوا بها معهم فهي لا ترق إلى موسيقى الحضر الأندلسية، وتمتاز بحزن نغمتها ومن آلاتهم الفضل وهو آلة طويلة العنق تشبه الربابة وشاعت عند ذوي السلطة.

ورغم ما قلناه عن الموسيقى فلا نجد أحدا من العلماء قد تناولها بالبحث والتأليف، ولعل النقد الاجتماعي لمتعاطي هذه الفنون هو المانع من التأليف.

• الرقص:

لم يكن الرقص شائعا بين الرجال اللهم رجال البادية، أما المدن فالرقص مقصور على النساء غير الحرائر، وقد جرت العادة أن يمارس الرقص بنات الهوى والوصيفات وكن يستدعين للحفلات ويعطين أجورا عالية، كما كن يرقصن في خيام خاصة خلال النهار وقيل إن قضاء ساعة فيها كان يعد من أفضل المتع عند السكان¹.

أما الرقص عند النساء نفسه يكون في تحريك الجسم حركات رشيقة مع هز البطن والأرداف والتلاعب بالأذرع والتمايل ذات اليمين وذات الشمال، ويرافق ذلك اهتزازت للشعر وغمزات بالعين ونحو ذلك . وهناك أنواع رقص أخرى ذلك أن أهل البادية رقصا

¹ أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج 2، المرجع السابق، ص ص 442 - 445.

رجاليا ونسائيا أكثر احتشاما. كما أن نساء الحضر يرقصن رقصا ترفيهيا في الحمامات ونحوها بالإضافة إلى رقص الدراويش وأهل التصوف¹.

3- مساهمة الحكام في الحياة الثقافية

لقد تجلّى احترام العثمانيين وتقديرهم للعلماء ومحاولة التقرب منهم من خلال بنائهم العديد من الزوايا والمساجد في كل المدن والقرى. وأوقفوا عليها أملاكهم اعتمادا منهم على منطق التضامن الإسلامي وهذا دليل على محاولتهم على المار التواصل مع الأهالي عن طريق السلطة الروحية².

وقد اشتركوا حكاما وجنودا وكراغلة في إقامة هذه المؤسسات³.

3-1- الباي محمد بن عثمان الكردي: كنيته أبو عثمان أبو على أبو محمد أبو أحمد أبو الفتوحات لقب بالكبير إكراما له بعد فتحه مدينة وهران كان يعتني بالثقافة ويحب المثقفين لذلك بن المدارس للطلبة ووفر لهم المؤن وهيا لهم الوسائل التي تساعدهم على المضي في طلب العلم واكتناز المعرفة وكان يحب الطلبة ولذلك بنى لهم مدرستين الأولى معسكر والثانية بوهران وكان يعظم العلماء فشيد لهم المساجد ورتب لهم مرتبات زيادة على المنح والهدايا التي كان يفاجئهم بها بمناسبة الأعياد والافراح.

كما أنه كان يملك مكتبة ضخمة تحتوي على مختارات من شتى المخطوطات وكان يأمر بنسخ المخطوطات لتكون في متناول الجميع⁴.

كما شجع الباي الكتاب على التأليف وفي شتى المعارف حتى أنه كان يقترح المواضيع أحيانا حيث كلف كاتبه مصطفى عبد الله بن زرقة بتدوين أحداث الجهاد في

¹ أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، المرجع السابق، ص 445.

² محفوظ قداش: الجزائر في الحمد التركي، العدد، 154، 1977، ص 22.

³ أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي ج 2، ص 194.

⁴ أحمد بن هطال التلمساني: رحلة محمد الكبير باي الغرب الى الجنوب الصحراوي الجزائري - تحقيق: محمد بن عبد الكريم، ط1، عالم الكتب، القاهرة، 1969، ص 16-25-26-27.

فتح وهران الثاني فألف الرحلة القمرية الأخبار المحمدية تشجيعا للحركة العلمية قام بارسال بعثات علمية للشرق خاصة الأزهر وكان يمدّهم بالإعانات.

ومن هنا يمكن القول أن لإصلاحات الباي أكبر حافز للنهوض بالحياة الثقافية وهذا راجعاً لميوله للمطالعة فكان فقيها وأديبا محبا للمجالس والمناضرات العلمية¹.

3-2-صالح باي : ولد صالح باي في حديثة أزمير بتركيا في شبه جزيرة آسيا الصغرى من أب تركي اسمه مصطفى وذلك عام 1739 في عام 1789 بني مدرسة بجوار جامع سيدي الخضر بقسنطينة ومسجد العناية واهتم بالتعليم وقرب إليه العلماء ورجال الدين والفقهاء أمثال المفتي الحنفي الشيخ عبد القادر الراشدي والقاضي الحنفي الشيخ شعبان جلول والقاضي المالكي الشيخ العباسي وتوفرت قسنطينة في عهده على خمسة مساجد كبرى، وسبعين مسجدا صغيرا وثلاثة عشرة زاوية الى جانب الكتاتيب القرآنية الكثيرة وأولى اهتمامه بالتعليم الديني، وغيره وخصص للمعلمين والفقهاء والوعاظ والأئمة أجورا سنوية قارة من أموال الأوقاف الإسلامية التي اهتم برعايتها وصيانتها، وعين وكلاء وقيمين لذلك، واستحدث في كل مدرسة قاعة، للصلاة وبيتا للوضوء وأخرى للتدريس وأربع غرف لسكنى الطلبة وحدد عشر سنوات للتخرج وإنهاء التعلم ووضع عقوبات زجرية للذين يخلون بالآداب العامة ومنها الطرد².

¹ أحمد بن سحنون الراشدي: الشعر الجمانى في اتسام الثغر الوهراني، تحقيق وتقديم المهدي بوعبدلي، مطبعة البحث قسنطينة الجزائر، 1973، ص ص 146-147.

² محمد الصالح بن العنتري: فريدة منسية في حال دخول الترك بلد قسنطينة واستلائهم على أوطانها، عالم المعرفة النشر والتوزيع الجزائر، 2009، ص ص 62-64.

خلاصة:

بعد دراسة ثنايا هذا الفصل تم استخلاص التالي:

1. أن الركود الثقافي الذي تميزت به الجزائر أواخر العهد العثماني لم يكن استثناء، وإنما هو الوضع الذي كان يسود معظم البلدان العربية، وهذا راجع إلى تركيز السلطة التركية على المجال العسكري.
2. الملاحظ أن لغة التخاطب كانت الفرنكا، فما دام هناك الكثير من الأرقاء الذين لا يجدون صعوبة مع هذه اللهجة، ومادام كثير من السكان عليهم أن يتعاملوا مع الأرقاء بطريقة أو بأخرى، فكانت الفرنكا هي وسيلة التخاطب بينهم.
3. رغم تنوع الأوقاف إلا أن هناك ما يثير الدهشة، إذ نجد غياب أوقاف الصالح مؤسسة صحية سواء من طرف الحكام أو باقي الشرائح الاجتماعية سيما وأن الرعاية الصحية تركت للمبادرة الفردية.
4. تميزت هاته الفترة بتكاثر الأوقاف وانتشارها وذلك نظرا للظروف التي اتسمت بها المرحلة من ازدياد الطرق الصوفية والزوايا وتعمق الروح الدينية لدى السكان.
5. عرفت الأوقاف في الجزائر تنظيما محكما وإشرافا فعالا، وذلك من خلال تشكيل إدارة محلية وجهاز إداري مستقل فتميزت بمهارة المشرفين وكفاءة القائمين به.
6. أهم ما يميز النظام القضائي الازدواجية والثنائية في القضاء بين مالكي وحنفي سواء في الهياكل أو في الأحكام القضائية.
7. انتشار التعليم بكثرة رغم ذلك ظل يعاني التقليد وعدم مواكبة التطورات الأوروبية.
8. اهتمام الشعب بالعلم والتعليم هو ما يفسر انعدام الأمية وانتشار التعليم على مسار واسع رغم عدم الاهتمام واللامبالاة التي تميزت بها السلطة التركية.
9. العجز عن مواكبة التطورات العلمية في العالم آنذاك والانشغال بالحروب في الوقت الذي كانت فيه الدول الأوروبية ترتقي درجة ودرجات في سلم المعرفة وتدخل بيوت المعرفة من أبوابها الواسعة، فكان سبب اختلاف التوازن وضعف الجزائر وسقوطها.

10. عدم تعمق الدارسين في التعليم مثل القدامى في العلوم الدينية ولم يحدث فيها أي اجتهاد.

11. العثمانيون هم المسؤولون عن مستوى التعليم لأنهم لم يقوموا بواجبهم لتطوير وتنشيط الحركة العلمية ولم تكن لهم أي خطة في هذا الباب.

12. كان التعليم والدين ملتزمين فكان بذلك التعليم أساسا لخدمة الدين.

13. على ضوء دراسة الجانب الثقافي نلاحظ أن المجهودات كانت جهوية وإقليمية أكثر منها قطرية عمومية، وأنها كانت محصورة في أشخاص وأماكن محدودة، ويرجع ذلك إلى الدولة التركية التي كانت عجمية اللسان لا تفقه شيئاً.



المخاتمة



الخاتمة:

لا يزال البحث في مسائل المجتمع الجزائري وعلاقاته في ظل العهد العثماني يحتاج الى المزيد من استقراء الوثائق ومدونات التي عاصرت فترة الدراسة والتي تبقى الوحيدة لاعطاء الملامح الحقيقية للجزئيات التي أغفل عنها الكثير من الكتاب الفرنسيون والجزائريون على حد سواء.

ولا نظن من خلال بحثنا المتواضع أن أضفنا بقدر المساهمته في اثراء التاريخ السياسي بما شملته جوانب الحياة الاجتماعية المختلفة والتي نعتقد أن لها التأثير الكبير في التداعيات السياسية التي لحقت بالجزائر.

ومن خلال ما سبق حاولنا استخلاص بعض الملاحظات التي رأينا أنه من الواجب ذكر بعضها كخلاصة للبحث في فعاليات المجتمع الجزائري العثمانية والتي يمكن ذكرها في ما يلي:

- 1- عرف المجتمع الجزائري في هاته الفترة بروح المؤاخاة والتعاطف والتآزر بين جميع أفرادهِ الذي تجمعه روابط المعاشرة والمصاحبة والمصاهرة عبر حقب التاريخ.
- 2- أن السلطة التركية في الجزائر ظلت علاقتها بعيدة على الاندماج الكلي مع المجتمع الجزائري، حيث لم تعمل على السماح بالمصاهرة مع الأهالي من المجتمع الجزائري إلا قليلا وهذا ما أدى مع مرور الوقت إلى ازدياد الهوة بين الشعب وبين السلطة .
- 3- أهم ما ميز الحكم العثماني في الجزائر هو احتكار فئة الأتراك للسلطة وإبعاد العناصر الغير تركية عن الحكم.
- 4- كل فئة من فئات المجتمع الجزائري في العهد العثماني كانت تعيش بمعزل عن الأخرى، وتعيش في قوقعتها الخاصة وتحت نظامها الخاص بها.
- 5- تأثر المجتمع الجزائري ببعض العادات والتقاليد التركية، وامتزاجها بالتقاليد الجزائرية.

- 6- من خلال دراسة وضعية المرأة آنذاك نقول : أنها كانت محدودة الدور مقارنة بما هي عليه الآن، فتمثل دورها في قيامها بالأعمال المنزلية، واقتصرت الدور الفعلي للمرأة في بعض الأحيان كمشاركتها في السياسة والحروب، وما توفره من منتوجات يدوية.
- 7- الملاحظ على الحالة الصحية أن منشاتها كانت قليلة أو نادرة، وأنها لم تكن لمصلحة الناس عموماً بل كانت لمصلحة منشئها والطبقة الحاكمة.
- 8- في المرحلة الأخيرة من حياة الدولة العثمانية أصبحت الحالة الصحية والمعاشية تزداد سوءاً وتدهوراً باستمرار.
- 9- يظهر أن الحالة الصحية كانت متردية في حين كانت البلاد بيئتها سليمة وصحية بطبعها وأن معظم الأمراض يرجع إلى إهمال الرعاية الصحية.
- 10- أن تدهور الأوضاع الاقتصادية بسبب الفيضانات وهجمات الجراد أدى إلى ظهور المجاعات وانتشار الأوبئة وأثر سلباً على الحالة الصحية.
- 11- امتزاج وتزاوج الذوق المحلي بالذوق العثماني في الميدان العمران الذي ساهم في ازدهار الحضارة العربية الإسلامية وخلق نمط جديد في الهندسة والعمران.
- 12- أن الركود الثقافي الذي تميزت به الجزائر أواخر العهد العثماني لم يكن استثناءً، وإنما هو الوضع الذي كان يسود معظم البلدان العربية، وهذا راجع إلى تركيز السلطة التركية على المجال العسكري.
- 13- الملاحظ أن لغة التخاطب في الجزائر كانت الفرنكا، فما دام هناك الكثير من الأرقاء الذين لا يجدون صعوبة مع هذه اللهجة، ومادام كثير من السكان عليهم أن يتعاملوا مع الأرقاء بطريقة أو بأخرى، فكانت الفرنكا هي وسيلة التخاطب بينهم.
- 14- رغم تنوع الأوقاف إلا أن هناك ما يثير الدهشة، إذ نجد غياب أوقاف لصالح مؤسسة صحية سواء من طرف الحكام أو باقي الشرائح الاجتماعية سيما وأن الرعاية الصحية تركت للمبادرة الفردية.

- 15- تميزت هته الفترة بتكاثر الأوقاف وانتشارها وذلك نظرا للظروف التي اتسمت بها المرحلة من ازدياد الطرق الصوفية والزوايا وتعمق الروح الدينية لدى السكان.
- 16- عرفت الأوقاف في الجزائر تنظيمًا محكمًا وإشرافًا فعالًا، وذلك من خلال تشكيل إدارة محلية وجهاز إداري مستقل فتميزت بمهارة المشرفين وكفاءة القائمين به.
- 17- أهم ما يميز النظام القضائي الازدواجية والثنائية في القضاء بين مالكي وحنفي سواء في الهياكل أو في الأحكام القضائية.
- 18- انتشار التعليم بكثرة رغم ذلك ظل يعاني التقليد وعدم مواكبة التطورات الأوروبية.
- 19- اهتمام الشعب بالعلم والتعليم هو ما يفسر انعدام الأمية وانتشار التعليم على مسار واسع رغم عدم الاهتمام واللامبالاة التي تميزت بها السلطة التركية.
- 20- العجز عن مواكبة التطورات العلمية في العالم آنذاك والانشغال بالحروب في الوقت الذي كانت فيه الدول الأوروبية ترتقي درجة ودرجات في سلم المعرفة وتدخل بيوت المعرفة من أبوابها الواسعة، فكان سبب اختلاف التوازن وضعف الجزائر وسقوطها.
- 21- عدم تعمق الدارسين في التعليم مثل القدامى في العلوم الدينية ولم يحدث فيها أي اجتهاد.
- 22- العثمانيون هم المسؤولون عن مستوى التعليم لأنهم لم يقوموا بواجبهم لتطوير وتنشيط الحركة العلمية ولم تكن لهم أي خطة في هذا الباب.
- 23- كان التعليم والدين متلازمين فكان بذلك التعليم أساسا لخدمة الدين.
- 24- على ضوء دراسة الجانب الثقافي نلاحظ أن المجهودات كانت جهوية وإقليمية أكثر منها قطرية عمومية، وأنها كانت محصورة في أشخاص وأماكن محدودة.
- وفي الأخير نقول مقولة العماد الأصفهاني : إني رأيت أنه لا يكتب أحد كتاب في يومه إلا قال عنه لو غير هذا لكان أحسن، ولو زيد هذا لكان يستحسن، ولو قدم هذا لكان أفضل، ولو ترك هذا لكان أجمل . وهذا من أعظم العبر وهو دليل على النقص لدى جميع البشر.



ملاحق



ملحق رقم: 01: لباس جزائري



المصدر: عمار عمورة: الجزائر بوابة التاريخ (الجزائر خاصة ما قبل التاريخ إلى
1962)، ج2، دار المعرفة، 2009، ص 174.

ملحق رقم: 02 : لباس جزائري



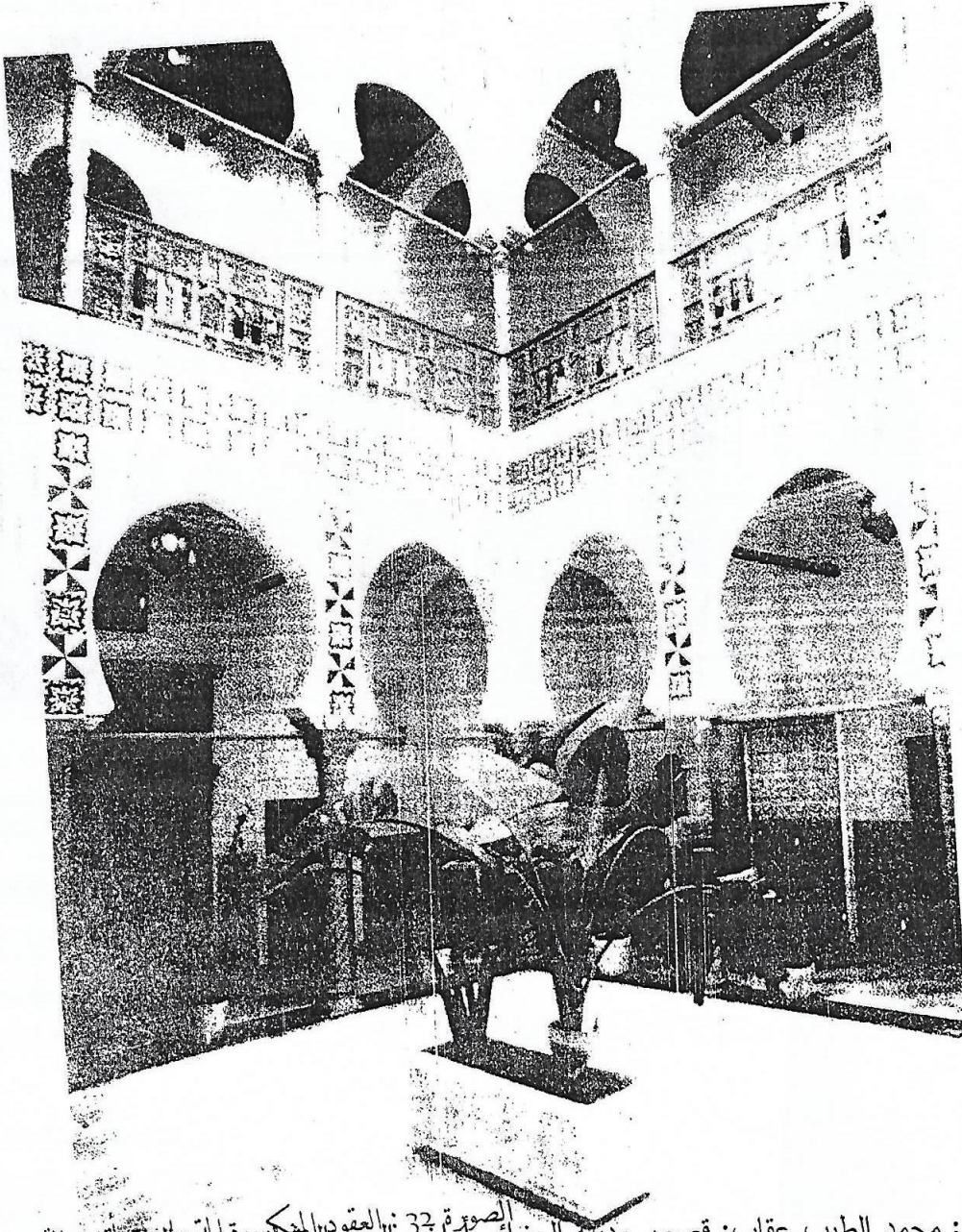
المصدر: عمار عمورة: الجزائر بوابة التاريخ (الجزائر خاصة منذ قبل التاريخ)
(1962)، ج2، دار المعرفة، 2009، ص176.

ملحق رقم 03 : لباس المرأة الجزائرية



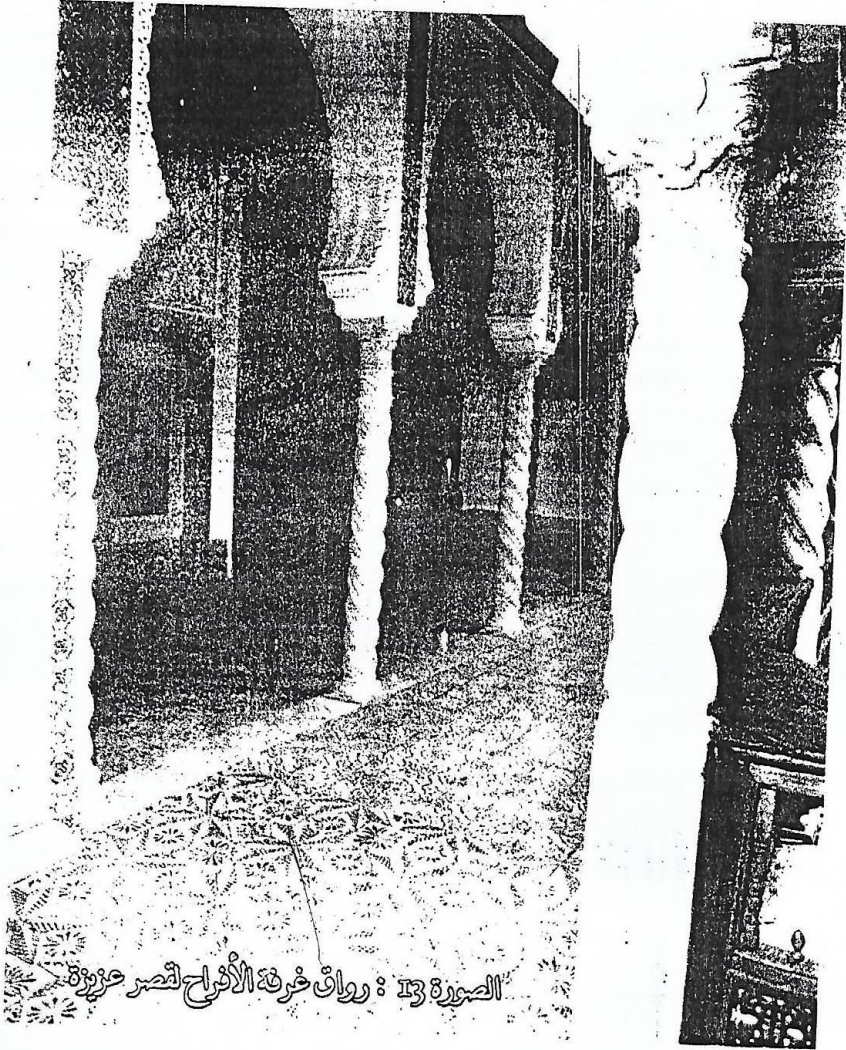
المصدر: عمار عمورة: الجزائر بوابة التاريخ (الجزائر خاصة ما قبل التاريخ إلى
1962)، ج2، دار المعرفة، 2009، ص172.

ملحق رقم 04 : قصر جزائري



المصدر: محمد الطيب عقاب: قصور مدينة الجزائر، آخر العهد العثماني، دار النشر: دار الثقافة، الجزائر، 2009، ص 134.

ملحق رقم 05 : قصر جزائري



المصدر: محمد الطيب عقاب: قصور مدينة الجزائر أواخر العهد العثماني، دار الحكمة، الجزائر، 2009، ص 59.

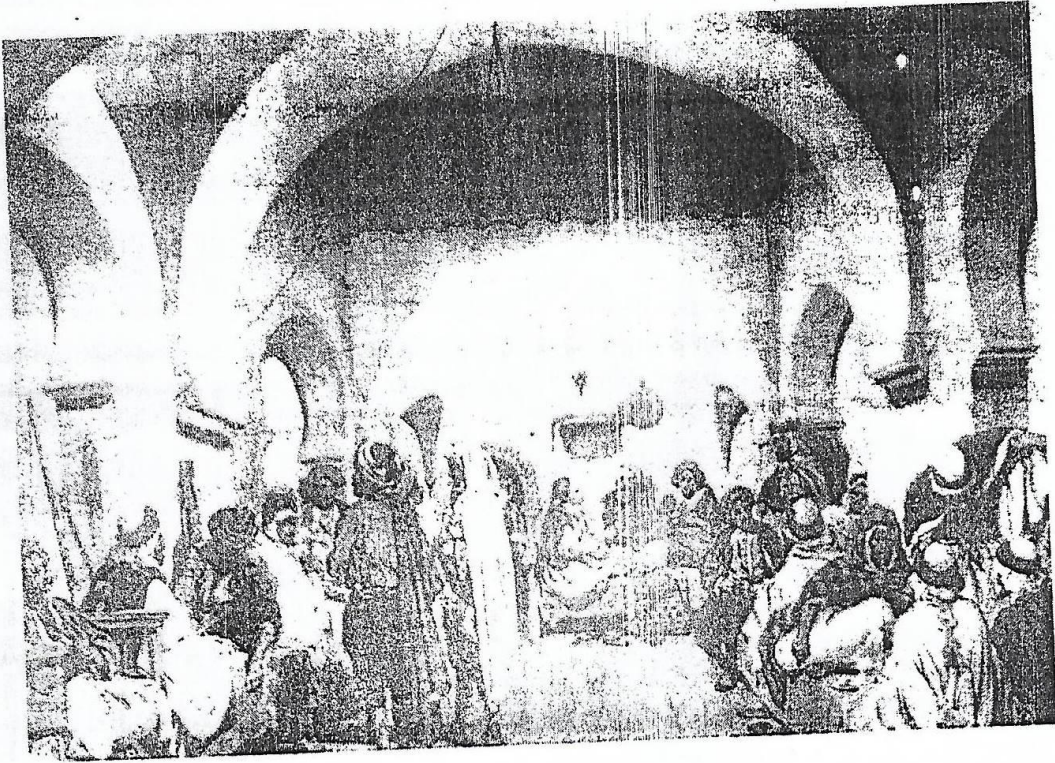
ملحق رقم 06: القصبة



القصبة

المصدر: عمار عمورة، نبيلة داوودة: الجزائر بوابة التاريخ عامة (ما قبل التاريخ إلى
(1962)، ج1، دار المعرفة، 2009م، ص196.

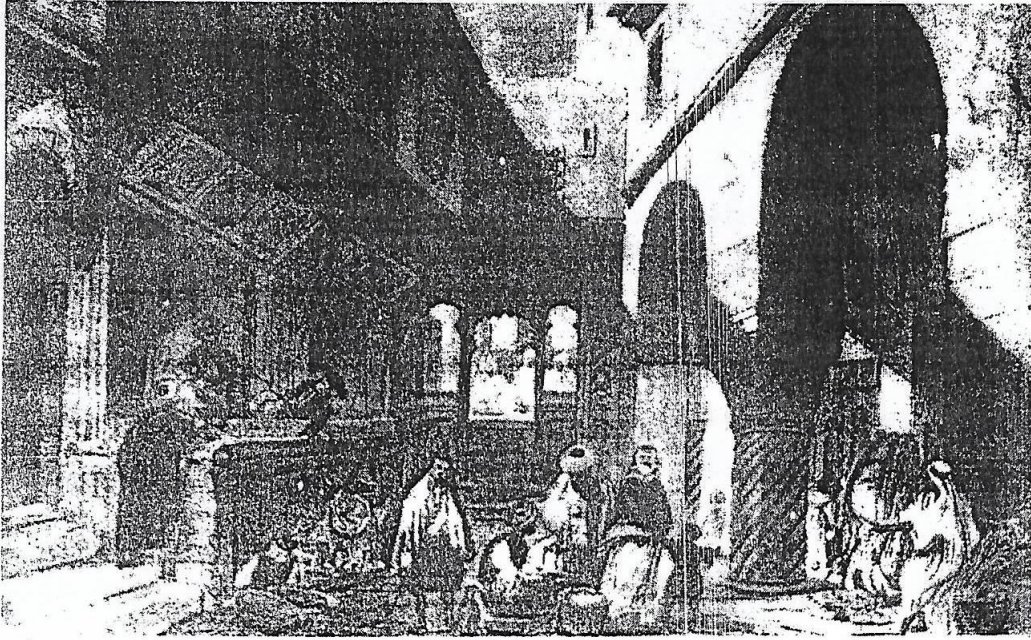
ملحق رقم 07 : مقهى



مقهى

المصدر: عمار عمورة: الجزائر بوابة التاريخ (الجزائر خاصة ما قبل التاريخ إلى
(1962)، ج2، دار المعرفة، 2009، ص183.

ملحق رقم 08 : سوق



سوق

المصدر: عمار عمورة: الجزائر بوابة التاريخ (الجزائر خاصة ما قبل التاريخ إلى
1962)، ج2، دار المعرفة، 2009، ص189.

ملحق رقم 09 : حمام عمومي



حمام عمومي

المصدر: عمار عمورة: الجزائر بوابة التاريخ (الجزائر خاصة ما قبل التاريخ إلى
(1962)، ج2، دار المعرفة، 2009، ص179.



الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
People's Democratic Republic of Algeria
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
Ministry of Higher Education and Scientific Research
جامعة محمد بوضياف بالمسيلة
University Mohamed Boudiaf of M'sila



Faculty of Humanities and Social Sciences
Vice-Deanship of the College for Studies and
Student Issues

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
نيابة العمادة للدراسات والمسائل المرتبطة بالطلبة

وثيقة ايداع مذكرة ماستر

الموضوع:

أسس مجتمع الجزائر العثمانية أواخر القرن 18 وبداية القرن 19

إعداد الطلبة:
1- عطال د سمية رقم التسجيل: UN 2801120322075097078
2- بن عزور بشرقة رقم التسجيل: UN 2801202323075112079
القسم: التاريخ الشعبة: التخصص: حديث
إشراف: عبد الرحمن لويقة الرتبة: أستاذ مساعد

أقر بأنني تابعت العمل المذكور أعلاه في جلسات إشرافية طيلة الموسم الجامعي: 2023-2024 وأسمح بإيداعه على مستوى إدارة القسم للمناقشة والتقييم.

موافقة وإمضاء الاستاذ(ة) المشرف(ة): رئيس فريق الاختصاص: ع/رئيس القسم



د. عباس فتحي



الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
People's Democratic Republic of Algeria
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
Ministry of Higher Education and Scientific Research
جامعة محمد بوضياف بالمسيلة
University Mohamed Boudiaf of M'sila



Faculty of Humanities and Social Sciences
Vice-Deanship of the College for Studies and
Student Issues

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
نيابة العمادة للدراسات والمسائل المرتبطة بالطلبة
الرقم: 2024/

تصريح شرفي خاص بالالتزام بقواعد النزاهة العلمية لإنجاز بحث

انا الممضي (ة) ادناه :

السيد(ة): شرفية بن عزور

الصفة(طالب, استاذ باحث, باحث دائم): طالبة

الحامل لبطاقة التعريف الوطنية رقم: 207987804

الصادرة بتاريخ: 03.06.2022 عن دائرة: أولاد دراح

المسجل(ة) بكلية: العلوم الإنسانية والاجتماعية قسم التاريخ

تخصص: حديث تحت رقم التسجيل: 112079 202323075 112804

والمكلف بإنجاز اعمال بحث (مذكرة التخرج ليسانس, مذكرة ماستر, مذكرة ماجستير, أطروحة دكتوراه).

عنوانها: أسواق المجتمع الجزائري العثمانية أواخر القرن 18
وبداية القرن 19

اصرح بشرفي باتني التزم بالمعايير العلمية والمنهجية ومعايير الاخلاقيات المهنية والنزاهة الاكاديمية المطلوبة في
انجاز البحث المذكور اعلاه

المسيلة في: 28/05/2024

امضاء المعني (ة):

المرجع: القرار الوزاري رقم: 933 المؤرخ في: 28-07-2016 المحدد للقواعد المتعلقة بالوقاية من السرقات العلمية ومكافحتها.



الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
People's Democratic Republic of Algeria
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
Ministry of Higher Education and Scientific Research
جامعة محمد بوضياف بالمسيلة
University Mohamed Boudiaf of M'sila



Faculty of Humanities and Social Sciences
Vice-Deanship of the College for Studies and
Student Issues

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
نيابة العمادة للدراسات والمسابقات المرتبطة بالطلبة
الرقم: 2024/

تصريح شرفي خاص بالالتزام بقواعد النزاهة العلمية لإنجاز بحث

انا الممضي (ة) ادناه :

السيد(ة): عطال دسمية

الصفة (طالب, استاذ باحث, باحث دائم): طالبة

الحامل لبطاقة التعريف الوطنية رقم: 206811796

الصادرة بتاريخ: 06.27.2021 عن دائرة: المسيلة

المسجل(ة) بكلية: العلوم الإنسانية والاجتماعية قسم: التاريخ

تخصص: حديث تحت رقم التسجيل: UN 28018083820707078

والمكلف بإنجاز اعمال بحث (مذكرة التخرج ليسانس، مذكرة ماستر، مذكرة ماجستير، أطروحة دكتوراه)

عنوانها: أسس مجتمع الجزائر الهناتية أواخر القرن 18
وليدانية القرن 19

اشرح بشرفي بانني التزم بالمعايير العلمية والمنهجية ومعايير الاخلاقيات المهنية والنزاهة الاكاديمية المطلوبة في
انجاز البحث المذكور اعلاه

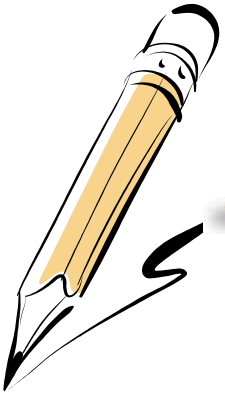
المسيلة في: 2024/05/28

امضاء المعني (ة):

المرجع: القرار الوزاري رقم: 933 المؤرخ في: 2016-07-28 المحدد للقواعد المتعلقة بالوقاية من السرقات العلمية ومكافحتها.



قائمة المصادر والمراجع



قائمة المصادر والمراجع

أولاً: المصادر

- 1) أحمد بن سحنون: الراشدي الشعر الجماني في اتسام الثغر الوهراني، تحقيق وتقديم المهدي بوعبدلي، مطبعة البحث قسطية، الجزائر، 1973 .
- 2) أحمد بن هطال التلمساني: رحلة محمد الكبير باي الغرب الى الجنوب الصحراوي الجزائري، - تحقيق محمد بن عبد الكريم ، ط1 ، عالم الكتب ، القاهرة، 1969.
- 3) أحمد توفيق المدني: مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار (نقيب أشرف الجزائر 1168-1246هـ / 1754-1830م)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1974.
- 4) حمدان بن عثمان خوجة: المرأة، تقديم وتعريب وتحقيق محمد العربي الزبيري، المؤسسة الوطنية للفنون، المطبعة، الجزائر، 2006.
- 5) صالح العنتري: مجاعات قسنطينة (دخائر المغرب العربي)، تحقيق وتقديم رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1394هـ / 1974م.
- 6) محمد الصالح بن العنتري : فريدة منسية في حال دخول الترك بلد قسنطينة واستلائهم على أوطانها ، عالم المعرفة النشر والتوزيع الجزائر، 2009.
- 7) محمد ميمون الجزائري :التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية (دخائر المغرب العربي) تقديم وتحقيق محمد بن عبد الكريم، ط 2 ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر ، 1981 .

ثانياً: المصادر المترجمة

- 1) أندري بريان، وآخرون: الجزائر بين الماضي والحاضر ترجمة اسطنبولي رابح ومنصف عاشور، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر ، 1984.
- 2) جون ب وولف: الجزائر وأوروبا 1500-1830، ترجمة: أبو القاسم سعد الله، المؤسسة الوطنية للكتاب.

- (3) شارل روبير أجيرون: تاريخ الجزائر المعاصر، ترجمة عيسى عصفور، ط1، منشورات عويدان، بيروت 13 لبنان، 1982.
- (4) فندلين شلوصر : قسنطينة ، أيام أحمد باي (1832- 1837) ترجمة وتقديم أبو العيد دودو، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع الجزائر، 1977
- (5) هاينريش فون مالتسان: ثلاث سنوات في شمال افريقيا، ترجمة أبو العيد دودو ، ج 2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر، 1979
- (6) وليام شالر: مذكرات وليام شالر فتظل أمريكا في الجزائر 1816- 1824، تعريف ولد وتقديم اسماعيل العربي ، الوطنية للشر و التوزيع الجزائر 1982 .
- (7) ويليم سبنسر: الجزائر في عهد رياس البحر، تقديم وتعريب الدكتور عبد القادر زبادية الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1980 .

ثانيا : المراجع

- (1) أبو العيد دودو: الجزائر في مؤلفات الرحالة الألمان، 1830-1855، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1989.
- (2) أبو القاسم سعد الله: أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج 5، دار البصائر، الجزائر 2007.
- (3) أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي (1500-1830) ، ج 1 ، 6 ، دار البصائر ، الجزائر ، 2009 .
- (4) أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي 1500-1830، ج 2 ، ط دار البصائر ، الجزائر ، 2009 .
- (5) أبو القاسم سعد الله: محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث (بداية الاحتلال)، ط3، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر ، 1982.
- (6) أحمد توفيق المدني: محمد عثمان باشا داي الجزائر (1766-1791)، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986 .

- (7) أحمد سليمان: النظام السياسي في الجزائر في العصر الحديث من القرن (16-20) مطبعة دحلب، الجزائر.
- (8) أحمد مريوش وآخرون: الحياة الثقافية في الجزائر خلال العهد العثماني، منشورات المركز الوطني للدراسة والبحث والحركة الوطنية وثورة 1954، طبعة خاصة بوزارة المجاهدين الجزائر، 2007.
- (9) جمال قنان: نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر الحديث، (1500-1830م) ، طبعة خاصة بوزارة المجاهدين، دار هومة، الجزائر.
- (10) حنفي هلايلي: أوراق في تاريخ الجزائر في العهد العثماني ، الجزائر ، ط1، دار الهدى ، 2008.
- (11) شارل أندري جوليان: تاريخ افريقيا الشمالية (تونس - الجزائر - المغرب الأقصى من الفتح الاسلامي إلى 1830، تعريب محمد مزالي والبشير سلامة، ج 2، ط3، الدار التونسية للنشر.
- (12) صالح عباد : الجزائر خلال الحكم التركي (1514-1830)، ط2، دار هومة للنشر والتوزيع، 2007.
- (13) صالح فركوس: تاريخ الجزائر من ما قبل التاريخ إلى غاية الاستقلال (المراحل الكبرى)، دار العلوم للنشر والتوزيع، الجزائر، 2005.
- (14) عائشة غطاس: الحرف والحرفيون بمدينة الجزائر (1700-1800) ، مقارنة اجتماعية اقتصادية، المؤسسة الوطنية للاتصال والنشر والاشهار الجزائر، 2007.
- (15) عبد الحميد أبي زيان بن أشهو: دخول الاتراك العثمانيين إلى الجزائر.
- (16) عبد الحميد زوزو: نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر المعاصر (1830-1900)، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1984.
- (17) عبد الرحمان الجيلالي: تاريخ الجزائر العام، ج 3، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1992م/ 1402هـ .

- 18) عبد الرحمان طالب: سيدي أحمد التجاني، ديوان المطبوعات الجامعية وهران، 2001.
- 19) عمار بوحوش: التاريخ السياسي للجزائر من البداية ولغاية 1962، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1997 .
- 20) عمار عمورة : الجزائر بوابة التاريخ(الجزائر خاصة ما قبل التاريخ إلى 1962)، ج 2، دار المعرفة، 2009 .
- 21) عمار عمورة: الموجز في تاريخ الجزائر، ط1، دار ربحانة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2002.
- 22) عمار عمورة، نبيل داوودة: الجزائر بوابة التاريخ (الجزائر عامة ما قبل التاريخ إلى 1962)، ج 1، دار المعرفة، 2009 م .
- 23) عميرايو احميدة : الجزائر في أدبيات الرحلة والأسر خلال العهد العثماني (مذكرات تيدنا نموذجاً)، دار الهدى الجزائر .
- 24) فوزي سعد الله : يهود الجزائر هؤلاء المجهولين ، شركة دار الامة للطباعة والنشر، 1995 .
- 25) مبارك الملي: تاريخ الجزائر في الحديث والقديم، ج 3، مكتبة النهضة الجزائرية، الجزائر.
- 26) محمد الطيب عقاب: حمدان خوجة رائد التجديد الإسلامي، وزارة الثقافة الجزائر، 2007.
- 27) محمد الطيب عقاب: قصور مدينة الجزائر أواخر العهد العثماني، دار الحكمة، الجزائر، 2009.
- 28) محمد مهيريس: المساجد العثمانية بوهـران ومعسكر ، ديوان المطبوعات الجامعية، 2009 .
- 29) مختار حساني: تاريخ الدولة الزيانية (الأحوال الاجتماعية)، ج3، دار الحضارة، الجزائر، 2009.

- (30) ناصر الدين سعيدوني: الجزائر منطلقات وأفاق مقاربات للواقع الجزائري من خلال قضايا ومفاهيم تاريخية، ط1، دار الغرب الإسلامي، 2000.
- (31) ناصر الدين سعيدوني: النظام المالي للجزائر في أواخر العهد العثماني (1792-1830)، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985.
- (32) ناصر الدين سعيدوني: دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر (الفترة الحديثة والمعاصرة)، ج 2، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1988.
- (33) ناصر الدين سعيدوني: دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر العهد العثماني، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984.
- (34) ناصر الدين سعيدوني: ورقات جزائرية دراسات وابحث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، ط1، دار الغرب الاسلامي، بيروت، 2000.
- (35) ناصر الدين سعيدوني، الشيخ المهدي البوعبدلي: الجزائر في التاريخ (العهد العثماني)، ج 4، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر.
- (36) يحي بوعزيز: الموجز في تاريخ الجزائر الحديثة، ج 2، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2007.
- (37) يحي بوعزيز: موضوعات وقضايا من تاريخ الجزائر والعرب، ج5، دار الهدى، عين مليلة الجزائر.

المجلات العلمية:

- (1) أبو القاسم سعد الله: دفتر محكمة المدينة أواخر العهد العثماني (1821-1839)، مجلة الثقافة، السنة الرابعة عشر، العدد 81، (شعبان رمضان 1404هـ / ماي يوليو 1984)، مجلة تصدرها وزارة الثقافة والسياحة، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 1984.
- (2) عائشة غطاس: الوضع الصحي للجزائر خلال العهد العثماني، مجلة الثقافة تصدر كل شهرين السنة الثالثة عشر، العدد 76 رمضان شوال 1403هـ / يوليو أغسطس 1983) تصدرها وزارة الثقافة المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 1983

- (3) عقيل نمير: الوقف في الجزائر أثناء القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، مجلة دراسات انسانية، مجلة دورية ندوة 29-30 ماي 2001، تصدرها كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، جمع وتقديم ناصر الدين سعيدوني، دار الحكمة، الجزائر، 2001-2002.
- (4) العيد مسعود: العلاقات الثقافية بين الجزائر والمشرق في العهد العثماني، مجلة سيرتا مجلة تاريخية اجتماعية العدد 1، يصدرها دوريا معهد العلوم الاجتماعية، جامعة قسنطينة، مطبعة البعث، الجزائر، 1399هـ / 1979م.
- (5) مؤيد محمود المشهداني وسلوان رشيد: أوضاع الجزائر خلال الحكم العثماني (1519-1830م) مجلة الدراسات التاريخية والحضارية، مج5، العدد 16، أوت 2013، جامعة تكريت العراق.
- (6) يحي بوعزيز: الحالة الاقتصادية والاجتماعية للمجتمع الريفي بالشرق الجزائري خلال القرن 19م، مجلة الثقافة، السنة الرابعة عشر، العدد 80، جمادى الثانية رجب 1403هـ / مارس أفريل (1984م)، مجلة تصدرها وزارة الثقافة والسياحة، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 1984م.
- الرسائل الجامعية:
- (1) فارس كعوان: النظام العثماني والفئات الاجتماعية في الجزائر - الكراغلة نموذجا، 1629-1830، رسالة ماجستير، قسم التاريخ، جامعة قسنطينة، الجزائر، 2004-2005.
- (2) فتيحة الوليش: الحياة الحضارية لبابلك العرب، رسالة ماجستير معهد التاريخ، جامعة الجزائر، 1994.
- (3) القاشعي فلة: النظام الضريبي بالريف القسنطيني أواخر العهد العثماني 1773-1827م، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث، 1989-1990م.
- (4) محمد دادة: اليهود في الجزائر خلال العهد العثماني منذ مطلع القرن 18 حتى 1830 رسالة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، قسم التاريخ، جامعة دمشق، 1985.

المراجع الأجنبية

- 1) Jean michel : ventur de paradis:alger ou xuiii, sieté (1788-1790)
.memoir. notes et observations d un diplomate espion.
presontation et notes par abd erahmane rebabi.edetion grand
alger livres.alger 2006..
- 2) Mouloud gaid: Algérie sous les turcs, édition mimouni, 2°
Edition Alger.



فهرس المحتويات

فهرس المحتويات

المحتويات

شكر وتقدير

اهداء

أ..... مقدمة:

5..... مدخل: الأوضاع السياسية والاقتصادية للجزائر أواخر العهد العثماني

الفصل الأول: بنية مجتمع الجزائر العثمانية

12..... 1 - سكان المدن

13..... 1-1 فئة الأتراك:

15..... 1-2 فئة الكراغلة:

16..... 1-3 فئة الحضر

19..... 1-4 فئة البرانية:

22..... 1-5 فئة الدخلاء:

29..... 2 - سكان الأرياف

30..... 1-2 قبائل الرعية:

31..... 2-2 قبائل المخزن:

33..... 2-3 المرابطون

35..... 3-التركيبة الاجتماعية

38..... خلاصة:

الفصل الثاني: الحياة الاجتماعية لسكان الجزائر العثمانية

40..... 1- المرافق الاجتماعية:

40..... 1-1- المساجد والقصور:

44..... 1-2- المساكن والمستشفيات

44..... أ- المساكن:

44..... ب- المستشفيات

45..... 1-3- المقاهي والأسواق

أ- المقاهي:	45
ب- الأسواق:	46
1-4 الحمامات والعيون	47
أ-الحمامات:	47
ب- العيون	49
2- العادات والتقاليد ووضعية المرأة:	51
1-2- الأعياد الدينية:	51
2-2- الأعياد الاجتماعية:	55
2-3 نمط الحياة ومعتقدات عامة	59
2-4- وضعية المرأة ودورها	67
3- الوضع الصحي والكوارث الطبيعية وأثرها على المجتمع:	70
1-3- الوضع الصحي	70
2-3- الكوارث الطبيعية وأثرها على المجتمع	78
خلاصة:	81

الفصل الثالث: الحياة الثقافية لمجتمع الجزائر العثمانية

1- المؤسسات الثقافية	84
1-1- الوقف	84
1-2- المساجد:	86
1-3- الزوايا:	87
1-4- المدارس والمعاهد	87
1-5 المكتبات:	88
2- الحياة الفكرية والعلمية:	90
1-2- اللغة والدين	90
2-2- القضاء والتعليم	93
2-3- العلوم والفنون	97
3- مساهمة الحكام في الحياة الثقافية	103
خلاصة:	105

108	الخاتمة:
112	ملاحق
126	قائمة المصادر والمراجع
133	فهرس المحتويات
	ملخص

ملخص:

عرفت الجزائر في الفترة الأخيرة من الحكم العثماني تمازج في الثقافات نتيجة الإنفتاح الذي شهدته في تلك الفترة فأثر على المجتمع في مختلف الميادين ورغم إنشغال العثمانيين بالجانب السياسي والعسكري إلا أننا نجد لمستهم في العديد من الجوانب الإجتماعية وهذا ما نلاحظ تأثيره في وقتنا الحالي وعلى النظير من ذلك نجد أن العثمانيين كانوا يعيدون كل البعد عن الجانب الثقافي مع ترك المجال مفتوح أمام مختلف المبادرات.

الكلمات المفتاحية: فعاليات المجتمع - فئات المجتمع - الحياة الاجتماعية.

Résumé

Dans la dernière période de la domination otomane, l'Algérie a connu une mêle de cultures grâce à l'ouverture qu'il a vécu à l'époque et cela influence sur la société dans différents domaines et malgré que les otomanes s'occupent au côté politique et militaire, on trouve leur touche dans toutes les cotés sociales et cela ce qu'on remarque à notre époque là Et malgré tout, on trouve que les otomanes étaient très loins de côté culturel pour laisser le champ libre devant différentes initiatives.

Mots-clés : Événements communautaires – groupes de la société – vie sociale.

Summary:

Algeria during the late Ottoman period witnessed a cultural fusion due to the openness it experienced during that period, which affected society in various fields. Despite the Ottomans' preoccupation with politics and the military, we find their influence in many social aspects, the impact of which continues to this day. On the other hand, we find that the Ottomans were far from the cultural aspect, leaving the field open to various initiatives.

Keywords: Community events -Social categories -Social life